البيان القرآني تنوع وتكامل

إعداد

د/ فادى محمود محمد الرفاعى

مدرس التفسير وعلوم القرآن بكلية أصول الدين - القاهرة

البيان القرآني تنوع وتكامل

د/ فادى محمود محمد الرفاعى.
قسم التفسير وعلوم القرآن، كلية أصول الدين، جامعة الأزهر- القاهرة، مصر.
البريد الاليكتروني: FsdiAl-rifai.2011@azhar.edu.eg

الملخص

بدأ الباحث بحثه بالحديث عن جوانب إعجاز القرآن البيانى، وعلوم البلاغة التى وضعها علماء العربية، كما يطالب الباحث بالاهتمام والكشف عن إعجاز القرآن الكريم البيانى الذى لا يمكن استقصاؤه، وضرورة التسلح بهذه الدراسة، والاطلاع الواسع على النصوص القرآنية، ودراستها دراسة تحليلية تكشف بعضا من جوانب الجمال والإبداع الذى يكتنف النصوص القرآنية. كما تحدث الباحث عن الأسلوب القرآنى وخصائصه الملازمة له، والتى أدت إلى إعجازه، كما تحدث الباحث عن التنويع فى أساليب البيان القرآنى، وكذلك التكامل فى أساليبه بين الأسباه والنظائر.

الكلمات المفتاحية: البيان ، تنوع ، تكامل ، الأسلوب ، القرآني.

Qur'anic statement diversity and complementarity

Fady Mahmoud Mohamed Al-Rifai.
Department of Interpretation and Quranic Sciences - Faculty of Fundamentals of Religion - Al-Azhar University - Cairo - Egypt.
University Email: FsdiAl-rifai.2011@azhar.edu.eg

Abstract:

The researcher began his research by talking about aspects of the rhetorical miracle of the Qur'an, and the sciences of rhetoric that

were developed by Arab scholars. The researcher demands attention and disclosure of the miracles statements of the Holy Qur'an that cannot be investigated and the necessity to arm itself with this study and wide perusal on the Qur'anic texts and studying them is an analytical study that reveals some aspects of the beauty and creativity surrounding the Qur'anic texts. The researcher also spoke about the Qur'anic method and its inherent characteristics which led to his miracle. He spoke about diversification in the styles of the Qur'anic statement as well as the integration of its methods between the likes and analogs.

Keywords: Statement, Diversity, Complementarity, Style, Qur'anic.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين خلق كلّ شيءٍ بقدر، ويسر كل شيء وأحكمه، في كلّ ما خلق من ظواهر وبواطن فى هذا الكون العجيب لكل نفس ناظرة.

هو الذي أنزل كتابَهُ القرآن العظيم معجزاً، وآية كبرى تدل على عظيم قدرته، ومن إعجازه ما فيه من جمال بيانيّ وبلاغةٍ فائقة لا ترقى إلى مثيلتها بلاغَة جميع البلغاء، ولا فصاحة جميعِ الفصحاء.

والصلاة والسلام على سيدنا محمّدٍ خاتم النبيّين، خَصه الله – ﷻ – بالدّينِ التام، والكتاب المعجز، فأنزله عليه مُتكَفِّلاً بحفظه من التغيير والتبديل والزيادة والنقصان، والتنازع والاختلاف فهيّأ له من وسائلِ الحفظِ والدوام ما جَعَلَهُ باقياً كما أنْزله في الصدور والسُّطُور من لدن حكيم خبير.

وبعدُ: فخدمةً للقرآن كتاب الله الكريم، وحرصاً على إبراز بعض جوانب إعجازه البيانيّ، اجتهد العلماء المسلمون قديماً بحثاً، وتَنْقِيباً واستخراجاً، حتَّى وَضَعُوا علوم البلاغة الثلاثة: "المعاني، والبيان، والبديع"(١).

---

(١) **علم المعاني**: أصول وقواعد يعرف بها أحوال الكلام العربي التي يكون بها مطابقا لمقتضى الحال. بحيث يكون وفق الغرض الذي سيق له.

وموضوعه: اللفظ العربي من حيث إفادته المعاني الثواني. التي هى الأغراض المقصودة للمتكلم، من جعل الكلام مشتملا على تلك اللطائف والخصوصيات، التي بها يطابق مقتضى الحال.

وفائدته:

أ- معرفة إعجاز القرآن الكريم، من جهة ماخصة الله به من جودة السبك، وحسن الرصف، وبراعة التراكيب، ولطف الإيجاز وما اشتمل عليه من سهولة التركيب،=

وما يزال الباحثُون يَبْحَثُون والدارسون ينقبون ويكتشفون من عناصر إعجاز القرآن البياني ما لم يكتشفه السابقون.

على أن كتاب الله – ﷻ – أوسع من أن يحصي كل عناصر إعجازه

= وجزالة كلماته وعذوبة ألفاظه وسلامتها، إلى غير ذلك من محاسنه التي أقعدت العرب عن مناهضته، وحارت عقولهم أمام فصاحته وبلاغته.

ب- والوقوف على أسرار البلاغة والفصاحة في منثور كلام العرب ومنظومه كي تحتذى حذوه، وتنسج على منواله، وتفرق بين جيد الكلام ورديئه.

وواضعه: الشيخ (عبد القاهر الجرجاني) (ت ٤٧١هـ).

البيان لغة: الكشف، والإيضاح، والظهُور. واصطلاحاً :أصولٌ وقواعدُ، يعرف بها إيرادُ المعنى الواحد، بطرق يختلف بعضُها عن بعض، في وُضوح الدّلالة العقلية على نفس ذلك المعنى.

وموضوع هذا العلم: الألفاظ العربية، من حيث، التشبيه، والمجاز والكناية.

وواضعه: (أبو عبيدة الذي دونَ مسائل هذا العلم في كتابه المُسمَّى «مجاز القرآن» وما زال ينمو شيئاً فشيئاً، حتى وصل إلى الامام «عبد القاهر» فأحكم أساسه، وشيَّدَ بناءه، ورتَّب قواعده، وتبعه (الجاحظ، وابن المعْتزّ، وقُدامَة، وأبو هلال العسكري).

البديع لغة: المخترع الموجد على غير مثال سابق، وهو مأخوذ ومشتقٌ من قولهم: بدع الشيء، وأبدعه، اخترعه لا على مثال.

واصطلاحا: هو علم يعرف به الوجوه، والمزايا التي تزيد الكلام حسنا وطلاوة، وتسكوه بهاءً، ورونقاً، بعد مطابقته لمقتضى الحال مع وضوح دلالته على المراد لفظا ومعنى.

وواضعه: (عبد الله بن المعتز العباسي) (ت ٢٧٤هـ).

جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع: أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي. (ت ١٣٦٢هـ) (٤٧/١، ٢١٦، ٢٩٦).

البياني الباحثون والمكتشفون، مهما اجتهدوا ونقبوا، ذلك لأن كثيرا من عناصر الجمال تدرك بالحس الجمالي ولا يستطاع تحديدها والتعبير عنها ولا اكتشاف عناصرها المتنوعة.

وسيظهر في كل عصر من جوانب إعجاز القرآن البياني روائع ما توصل السابقون إلى اكتشافها واستخراجها، فهو كتاب لا تفنى عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد.

وإيمانا منى بهذه الناحية أردت أن أخوض فى هذه الناحية لإبراز بعض هذه الجوانب التى تكشف عن جمال العقد الذى يكتنف أعظم كتاب أنزله الله تعالى، وهو أولى ما يشتغل به الدارسون.

وقمت بتسميته: **"البيان القرآني تنوع وتكامل"**.

ورغم ما يشمله لفظ البيان من أحوال عديدة ومقامات متنوعة إلا أن الأمر لا يمكن استيعابه فى موطن واحد، ويحتاج إلى عروض كثيرة وأبحاث مستفيضة.

أسباب اختيار الموضوع:

تكمن أسباب اختيار الموضوع فى عدة جوانب من أهمها:

١- العيش فى رحاب القرآن الكريم وآياته، وخدمته على الوجه الأمثل.

٢- ضرورة التسلح بهذه الدراسة، والاطلاع الواسع على النصوص القرآنية، ودراستها دراسة تحليلية تكتشف من جوانب الجمال والإبداع فيها قدر استطاعة الباحث.

٣- تربية الذوق والملكة البيانية لدى المفسر.

٤- حاجة المكتبة القرآنية لمثل هذه الموضوعات.

وقمت بتقسيم هذا البحث إلى مقدمة ومطلبين، وثلاثة مباحث، وخاتمة، وفهارس. على النحو التالى:

المقدمة

وتتضمن:

١- أسباب اختيار الموضوع.

٢- خطة البحث.

المطلب الأول: التعريف بالتنوع.

المطلب الثانى: التعريف بالتكامل.

المبحث الأول: التعريف بالأسلوب القرآنى وخصائصه التى أدت إلى إعجازه.

المبحث الثانى: التنويع في أساليب البيان القرآني.

المبحث الثالث: التكامل في أساليب البيان القرآنى بين الأشباه والنظائر.

الخاتمة وتحتوى على أهم النتائج والتوصيات.

الفهارس، وتتضمن:

فهرس المراجع.

كتبه

د/ فادى محمود محمد الرفاعى

مدرس التفسير وعلوم القرآن

كلية أصول الدين – القاهرة

المطلب الأول

التعريف بالتنوع

"نوع: نوع الشيء جعله أنواعا ... نوعوه أصنافا.. فرقوه إلى أنواع عديدة ... نوع هذه الأشياء أكثر من هذا التنويع.

تنوع: تغيرت الأحوال، وتنوعت الأشكال ... معارف متنوعة"(١).

بالنظر إلى هذا النص أجد أنه يشير إلى أن التنوع المراد به هنا هو التنوع فى التعبير والأسلوب فى حال دون حال، ومقام دون آخر وذلك دون الإخلال بالنظم أو الفصاحة التى يمتاز بها القرآن الكريم.

ولعل من الأهمية بمكان أن أشير إلى أن هذه السمة التى اختص بها كتاب الله -ﷻ- لا يمكن لأحد أن يطلع عليها إلا بعد أن يتعمق فى أسرار العلوم، ويعلم تلك الحقائق التى امتازت بها، وتلك الطرق التى لا يمكن لأحد أن يتصدّى لسلوكها (ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما علم المعاني وعلم البيان وتمهل في ارتيادهما آونة، وتعب في التنقير(٢) عنهما أزمنة، وبعثته على تتبع

---

(١) تكملة المعاجم العربية رينهارت بيتر آن دُوزِي (ت ١٣٠٠هـ) (٣٣٦/١٠- ٣٣٧).

(٢) "نقر الطائر الحب بمنقاره. ونقر النقّار الرحى بمنقاره. ونقر العود والدّف. ونقر رأسه بإصبعه نقرةً. ونقرت الخيل بحوافرها: احتفرت بها. واستنقع الماء في النقرة والنّقر. واحتجم في نقرة القفا. وله إبريق من النقرة وهي الفضة المذابة. ومن المجاز: نقرته: عبته وغبته. ورميته بناقرة وبنواقر. وبينهما مناقرة: مراجعة كلام. ونقرت عن الخبر ونقّرت عنه: بحثت". أساس البلاغة (٢٩٨/٢) مادة (نقر)، مجمل اللغة (٨٨١/١) مادة (نقر)، لسان العرب (٢٢٧/٥) مادة (نقر).

مظانهما همة في معرفة لطائف حجة اللَّه، وحرص على استيضاح معجزة رسول اللَّه بعد أن يكون آخذاً من سائر العلوم بحظ، جامعا بين أمرين تحقيق وحفظ كثير المطالعات، طويل المراجعات)[1].

ومن محاسن النكت التى احتوى عليها كتاب الله تعالى، ومن لطائف المعانى ما يدق فيها مباحث للفكر ألا وهى التنوع فى الكلمات والعبارات.

وقد يتجلى للناظر أنه ما من مؤلف إلا ويلاحظ عليه التباين الشديد بين أوله وآخره، وأوسطه حتى يخيل إليه أنه عديم الأخطاء، ولكنه صنع البشر، وهيهات هيهات.

وعليه يمكن القول: بأن القرآن الكريم هو "مناط الوحدة الذوقية والوجدانية لمختلف الشعوب التى اتخذت العربية لسانا لها"[2].

(١) مقدمة الكشاف (٣/١).

(٢) التفسير البيانى للقرآن الكريم: د/ عائشة بنت عبد الرحمن الشاطىء (١٥/١).

المطلب الثانى

التعريف بالتكامل

جاء فى مقاييس اللغة: "الْكَافُ وَالْمِيمُ وَاللَّامُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى تَمَامِ الشَّيْءِ. يُقَالُ: كَمَلَ الشَّيْءُ وَكَمُلَ فَهُوَ كَامِلٌ، أَيْ: تَامٌّ. وَأَكْمَلْتُهُ أَنَا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾"(١).

وفى لسان العرب: "كمل: الكَمَال: التَّمام، وَقِيلَ: التَّمام الَّذِي تَجَزَّأَ مِنْهُ أَجزاؤه، وَفِيهِ ثَلَاثُ لُغَاتٍ: كَمَلَ الشَّيْءُ يَكْمُل، وكَمِلَ وكَمُلَ كَمَالًا وكُمولًا، قَالَ الْجَوْهَرِيُّ(٢): وَالْكَسْرُ أَرْدَؤُها. وَشَيْءٌ كَمِيل: كامِل، جاؤوا بِهِ عَلَى كَمُلَ ...

وتَكَمَّل: ككَمَل. وتَكَامَلَ الشَّيْءُ وأَكْمَلْته أَنا وأَكْمَلْت الشَّيْءَ أَي: أَجْمَلْتُه وأَتممته، وأَكْمَلَه هُوَ واسْتَكْمَلَه وكَمَّلَه: أَتَمَّه وجَمَلَه"(٣).

و"كمَل الكلامُ: تمَّت أجزاؤه أو صفاتُه فصار كاملاً"(٤). و"تكاملَ يتكامل، تَكامُلاً، فهو مُتكامِل. تكاملتِ الأشياءُ: كمَّل بعضُها بعضًا بحيث لم تحتج إلى مايُكمِّلها من خارجها"(٥).

---

(١) معجم مقاييس اللغة (١٣٩/٥) مادة (كمل)، والآية رقم (٣) سورة المائدة .

(٢) أبو نصر إسماعيل بن حماد التركي إمام اللغة، وأحد من يضرب به المثل في ضبط اللغة، أخذ العربية عن السيرافي والفارسي، إمام في النحو واللغة والصرف، وصنف كتابا في العروض، ومقدمة في النحو، والصحاح في اللغة، مات متردّيا من سطح داره بنيسابور سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة. سير أعلام النبلاء (٨٠/١٧)، الوافى بالوفيات (٦٩/٩)، البلغة (٨٧/١)، إنباه الرواه (٢٣٠/١).

(٣) لسان العرب (٥٩٨/١١) مادة (كمل).

(٤) معجم اللغة العربية المعاصرة (١٩٥٨/٣) مادة (كمل).

(٥) نفس المصدر (١٩٥٩/٣).

بالنظر إلى هذه النصوص أجد أن أصل هذه المادة يدل على تمام الشيء وإجماله، والإتيان به على وجه الصحة دون الإخلال به.

وإنما تؤدي ألفاظ القرآن الكريم معنى التكامل والاعتدال والانسجام دون أدنى خلل أو إضطراب، ولم يخرج تصور الوحدة بين الألفاظ المتعددة لدى المفسرين عن صورة التكامل والتناسب معاً فى أداء المعنى فى كتاب الله تعالى.

والمقصود به هنا التكامل الذي يوظِّف الإعراب، واصطفاء اللفظ والملاءمة بين الكلمة والكلمة في القالب الذي ييسر على اللسان نطقه، ويهييء النفس لقبوله، كأساس لخصال هذا الأسلوب الرائع الذى امتاز به كتاب الله تعالى.

المبحث الأول

التعريف بالأسلوب القرآنى وخصائصه التى أدت إلى إعجازه

بادىء ذى بدء أعرف بالأسلوب حتى يتجلى لنا الأمر.

الأسلوب لغة:

"الطَّرِيق المستوي وَمِنْه أَخذ فِي أساليب من القَوْل: أَي: ضُروب مِنْهُ"(١).

"وَالْأُسْلُوبُ بِضَمِّ الْهَمْزَةِ الطَّرِيقُ وَالْفَنُّ وَهُوَ عَلَى أُسْلُوبٍ مِنْ أَسَالِيبِ الْقَوْمِ أَيْ: عَلَى طَرِيقٍ مِنْ طُرُقِهِمْ"(٢).

الأسلوب اصطلاحا:

"هو الطريقة الكلامية التي يسلكها المتكلم في تأليف كلامه واختيار ألفاظه.

أو هو المذهب الكلامي الذي انفرد بـه المتكلم فـي تأديـة معانيـه ومقاصده من كلامه.

أو هو طابع الكلام أو فنه الذي انفرد به المتكلم كذلك"(٣).

معنى أسلوب القرآن:

وبعد ذلك يمكن القول بأن أسلوب القرآن الكريم "هو طريقته التي انفرد بها في تأليف كلامه واختيار ألفاظه الخاصة به"(٤)، ولا غرابة فى ذلك، فمن المعهود أن لكل واحد من البشر أسلوب خاص به، بل إن أساليب المتكلمين وغيرهم من المثقفين تختلف فى طرائقهم وفي عرض كلامهم من مقال، أو

---

(١) المخصص لابن سيده (٣٠٩/٣).

(٢) المصباح المنير (٢٨٤/١) مادة (سلب).

(٣) مناهل العرفان في علوم القرآن (٣٠٣/٢) .

(٤) نفس المصدر ونفس الصفحة .

غيره، فهى تتعدد بتعدد أشخاصهم بل تتعدد في الشخص الواحد بتعدد الموضوعات التي يتناولها أصحابها.

ويحسن بى أن أشير إلى أن الأسلوب غير المفردات والتراكيب التي يتألف منها الكلام وينتظم، وإنما هو الطريقة التي سلكها القرآن الكريم في اختيار المفردات والمعانى المتعددة.

ولعل من الأهمية بمكان أن أشير إلى أن هذا هو السر في أن الأساليب مختلفة "باختلاف المتكلمين من ناثرين وناظمين مع أن المفردات التي يستخدمها الجميع واحدة والتراكيب في جملتها واحدة وقواعد صوغ المفردات وتكوين الجمل واحدة وهذا هو السر أيضا في أن القرآن لم يخرج عن معهود العرب في لغتهم العربية من حيث ذوات المفردات والجمل وقوانينها العامة بل جاء كتابا عربيا جاريا على مألوف العرب من هذه الناحية فمن حروفهم تألفت كلماته ومن كلماتهم تألفت تراكيبه وعلى قواعدهم العامة في صياغة هذه المفردات وتكوين التراكيب جاء تأليفه ولكن المعجز والمدهش والمثير لأعجب العجب أنه مع دخوله على العرب من هذا الباب الذي عهدوه ومع مجيئه بهذه المفردات والتراكيب التي توافروا على معرفتها وتنافسوا في حلبتها وبلغوا الشأو الأعلى فيها نقول إن القرآن مع ذلك كله وبرغم ذلك كله قد أعجزهم بأسلوبه الفذ ومذهبه الكلامي المعجز ولو دخل عليهم من غير هذا الباب الذي يعرفونه لأمكن أن يلتمس لهم عذر أو شبه عذر وأن يسلم لهم طعن أو شبه طعن ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾[1] ولهذا

(١) سورة فصلت الآية (٤٤).

المعنى وصف الله كتابه بالعروبة في غير آية فقال – جل ذكره –: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[1] وقال: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[2] وقال: ﴿ قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾[3].

خصائص أسلوب القرآن:

مما لا شك فيه أن القرآن الكريم قد اختص بخصائص تميز بها فى أساليبه، وانفرد بها عن سائر الكلام، وبالأخص كلام العرب من خلال خطبهم وأشعارهم لما فيه من أسلوب البلاغة، وعجيب الفصاحة التى حاز السبق إليها.

وبالتأمل ألاحظ أنه جمع بين الجزالة والعذوبة وهما كالمتضادين لا يجتمعان فى كلام البشر.

فقد تميز القرآن الكريم بنوع خاص من الفصاحة والجزالة والنظم والبلاغة ما لم يعهده أى كتاب آخر، وهذا يدل على أن ما جاء به النبى عليه الصلاة والسلام لم يأت به من تلقاء نفسه، وإنما هو وحى يوحى إليه، دلالة على صدقه ومعجزة له.

إذا تقرر هذا لديك فاعلم أن الاستقصاء والإحاطة بخصائص الأسلوب القرآني على وجه الاستيعاب أمر استأثر به الله –ﷻ–.

وقد أجاد صاحب المناهل في هذا الموضوع وأفاد، وإليك ما قاله: "وإذن فلنذكر نحن بدورنا شيئا من خصائص أسلوب القرآن على وجه

---

(١) سورة يوسف الآية (٣).

(٢) سورة الزخرف الآية (٣).

(٣) مناهل العرفان في علوم القرآن (٢/٣٠٣ – ٣٠٤) والآية (٢٨) سورة الزمر.

التمثيل والتقريب أيضا وما لا يدرك كله لا يترك أقله.

الخاصة الأولى:

مسحة القرآن اللفظية فإنها مسحة خلابة عجيبة تتجلى في نظامه الصوتي وجماله اللغوي.

١- ونريد بنظام القرآن الصوتي اتساق القرآن وائتلافه في حركاته وسكناته ومداته وغناته واتصالاته وسكتاته اتساقا عجيبا وائتلافا رائعا يسترعي الأسماع ويستهوي النفوس بطريقة لا يمكن أن يصل إليها أى كلام آخر من منظوم ومنثور وبيان ذلك أن من ألقى سمعه إلى مجموعة القرآن الصوتية وهي مرسلة على وجه السذاجة في الهواء مجردة من هيكل الحروف والكلمات كأن يكون السامع بعيدا عن القارئ المجود بحيث لا تبلغ إلى سمعه الحروف والكلمات متميزا بعضها عن بعض بل يبلغه مجرد الأصوات الساذجة المؤلفة من المدات والغنات والحركات والسكنات والاتصالات والسكتات نقول إن من ألقى سمعه إلى هذه المجموعة الصوتية الساذجة يشعر من نفسه ولو كان أعجميا لا يعرف العربية بأنه أمام لحن غريب وتوقيع عجيب يفوق في حسنه وجماله كل ما عرف من توقيع الموسيقى وترنيم الشعر لأن الموسيقى تتشابه أجراسها وتتقارب أنغامها فلا يفتأ السمع أن يملها والطبع أن يمجها ولأن الشعر تتحد فيه الأوزان وتتشابه القوافي في القصيدة الواحدة غالبا وإن طالت على نمط يورث سامعه السأم والملل بينما سامع لحن القرآن لا يسأم ولا يمل لأنه يتنقل فيه دائما بين ألحان متنوعة وأنغام متجددة على أوضاع مختلفة يهز كل وضع منها أوتار القلوب وأعصاب الأفئدة.

وهذا الجمال الصوتي أو النظام التوقيعي هو أول شيء أحسته الآذان العربية أيام نزول القرآن ولم تكن عهدت مثله فيما عرفت من منثور الكلام سواء أكان مرسلا أم مسجوعا حتى خيل إلى هؤلاء العرب أن القرآن شعر لأنهم أدركوا في إيقاعه وترجيعه لذة وأخذتهم من لذة هذا الإيقاع والترجيع هزة لم يعرفوا شيئا قريبا منها إلا في الشعر ولكن سرعان ما عادوا على أنفسهم بالتخطئة فيما ظنوا حتى قال قائلهم وهو الوليد بن المغيرة وما هو بالشعر[1] معللا ذلك بأنه ليس على أعاريض الشعر في رجزه ولا في قصيدة بيد أنه تورط في خطأ أفحش من هذا الخطأ حين زعم في ظلام العناد والحيرة أنه سحر لأنه اخذ من النثر جلاله وروعته ومن النظم جماله ومتعته ووقف منهما في نقطة وسط خارقة لحدود العادة البشرية بين

(١) ونص الحديث"عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رضي الله عنهما-، أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةِ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ -ﷺ- فَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ، فَكَأَنَّهُ رَقَّ لَهُ فَبَلَغَ ذَلِكَ أَبَا جَهْلٍ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: يَا عَمِّ، إِنَّ قَوْمَكَ يَرَوْنَ أَنْ يَجْمَعُوا لَكَ مَالًا. قَالَ: لِمَ؟ قَالَ: لِيُعْطُوكَهُ فَإِنَّكَ أَتَيْتَ مُحَمَّدًا لِتُعَرِّضَ لِمَا قِبَلَهُ قَالَ: قَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ أَنِّي مِنْ أَكْثَرِهَا مَالًا. قَالَ: فَقُلْ فِيهِ قَوْلًا يَبْلُغُ قَوْمَكَ أَنَّكَ مُنْكِرٌ لَهُ أَوْ أَنَّكَ كَارِهٌ لَهُ قَالَ: وَمَاذَا أَقُولُ «فَوَاللَّهِ مَا فِيكُمْ رَجُلٌ أَعْلَمَ بِالْأَشْعَارِ مِنِّي، وَلَا أَعْلَمَ بِرَجَزٍ وَلَا بِقَصِيدَةٍ مِنِّي وَلَا بِأَشْعَارِ الْجِنِّ وَاللَّهِ مَا يُشْبِهُ الَّذِي يَقُولُ شَيْئًا مِنْ هَذَا وَوَاللَّهِ إِنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي يَقُولُ حَلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً، وَإِنَّهُ لَمُثْمِرٌ أَعْلَاهُ مُغْدِقٌ أَسْفَلُهُ، وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَمَا يُعْلَى وَإِنَّهُ لَيَحْطِمُ مَا تَحْتَهُ» قَالَ: لَا يَرْضَى عَنْكَ قَوْمُكَ حَتَّى تَقُولَ فِيهِ. قَالَ: فَدَعْنِي حَتَّى أُفَكِّرَ، فَلَمَّا فَكَّرَ قَالَ: "هَذَا سِحْرٌ يُؤْثَرُ يَأْثُرُهُ مِنْ غَيْرِهِ فَنَزَلَتْ ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ [المدثر: ١١]. أخرجه الحاكم كتاب التفسير باب تفسير سورة المدثر وقال: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط البخاري ولم يخرجاه (٢/٥٥٠) رقم (٣٨٧٢) ووافقه الذهبى.

إطلاق النثر وإرساله وتقييد الشعر وأوزانه ولو أنصف هؤلاء لعلموا أنه كلام منثور لكنه معجز ليس كمثله كلام لأنه صادر من متكلم قادر ليس كمثله شيء وما هو بالشعر ولا بالسحر لأن الشعر معروف لهم بتقفيته ووزنه وقانونه ورسمه والقرآن ليس منه ولأن السحر محاولات خبيثة لا تصدر إلا من نفس خبيثة ولقد علمت قريش أكثر من غيرهم طهارة النفس المحمدية وسموها ونبلها "[1].

وقد استوعب هذا صاحب النبأ العظيم حينما قال: "أول ما يلاقيك ويستدعي انتباهك من أسلوب القرآن الكريم خاصية تأليفه الصوتي في شكله وجوهره.

١- الجمال التوقيعي في توزيع حركاته وسكناته، ومداته وغُنَّاته:

دع القارئ المجود يقرأ القرآن يرتله حق ترتيله نازلًا بنفسه على هوى القرآن، وليس نازلًا بالقرآن على هوى نفسه. ثم انتبذ منه مكانًا قصيًّا لا تسمع فيه جرس حروفه، ولكن تسمع حركاتها وسكناتها، ومداتها وغناتها، واتصالاتها وسكتاتها، ثم ألق سمعك إلى هذه المجموعة الصوتية، وقد جردت تجريدًا وأرسلت ساذجة في الهواء. فستجد نفسك منها بإزاء لحن غريب عجيب لا تجده في كلام آخر لو جرد هذا التجريد، وجود هذا التجويد.

ستجد اتساقًا وائتلافًا يسترعي من سمعك ما تسترعيه الموسيقى والشعر، على أنه ليس بأنعام الموسيقى ولا بأوزان الشعر، وستجد شيئًا آخر لا تجده في الموسيقى ولا في الشعر. ذلك أنك تسمع القصيدة من الشعر فإذا هي تتحد الأوزان فيها بيتًا بيتًا، وشطرًا شطرًا، وتسمع القطعة

(١) مناهل العرفان (٢/٣٠٩ – ٣١٠) .

من الموسيقى فإذا هي تتشابه أهواؤها وتذهب مذهبًا متقاربًا. فلا يلبث سمعك أن يمجها، وطبعك أن يملها، إذا أعيدت وكررت عليك بتوقيع واحد. بينما أنت من القرآن أبدًا في لحن متنوع متجدد، تنتقل فيه بين أسباب وأوتاد وفواصل على أوضاع مختلفة، يأخذ منها كل وتر من أوتار قلبك بنصيب سواء، فلا يعروك منه على كثرة ترداده ملالة ولا سأم. بل لا تفتأ تطلب منه المزيد.

هذا الجمال التوقيعي في لغة القرآن لا يخفى على أحد ممن يسمع القرآن، حتى الذين لا يعرفون لغة العرب. فكيف يخفى على العرب أنفسهم؟

وترى الناس قد يتساءلون: لماذا كانت العرب إذا اختصمت في القرآن قارنت بينه وبين الشعر نفيًا وإثباتًا، ولم تعرض لسائر كلامها من الخطابة وغيرها؟

وأنت، فهل تبينت ها هنا الجواب، وهديت إلى السر الذي فطنت له العرب، ولم يفطن له المستعربون؟

إن أول شيء أحسته تلك الأذن العربية في نظم القرآن هو ذلك النظام الصوتي البديع الذي قسمت فيه الحركة والسكون تقسيمًا منوعًا يجدد نشاط السامع لسماعه، ووزعت في تضاعيفه حروف المد والغنة توزيعًا بالقسط الذي يساعد على ترجيع الصوت به وتهادي النفس به آنًا بعد آن، إلى أن يصل إلى الفاصلة الأخرى فيجد عندها راحته العظمى، وهذا النحو من التنظيم الصوتي إن كانت العرب قد عمدت إلى شيء منه في أشعارها فذهبت فيها إلى حد الإسراف في الاستهواء، ثم إلى حد الإملال في التكرير. فإنها ما كانت تعهده قط ولا كان يتهيأ لها بتلك السهولة في منثور كلامها سواء منه المرسل والمسجوع؛ بل كان يقع لها في أجود نثرها عيوب

تغض من سلاسة تركيبه، ولا يمكن معها إجادة ترتيله إلا بإدخال شيء عليه أو حذف شيء منه.

لا عجب إذًا أن يكون أدنى الألقاب إلى القرآن في خيال العرب أنه شعر؛ لأنها وجدت في توقيعه هزة لا تجد شيئًا منها إلا في الشعر. ولا عجب أن ترجع إلى أنفسها، فتقول: ما هو بشعر؛ لأنه – كما قال الوليد – ليس على أعاريض الشعر في رجزه ولا في قصيده. ثم لا عجب أن تجعل مرد هذه الحيرة أخيرًا إلى أنه ضرب من السحر؛ لأنه جمع بين طرفي الإطلاق والتقييد في حد وسط، فكان له من النثر جلاله وروعته، ومن الشعر جماله ومتعته"(١).

ونخلص من هذا الذي ذكرناه آنفًا إلى أن اللفظ الذي انتقاه الله من أفصح لغات العرب يمتاز عن غيره من الألفاظ السائدة في كلامهم بثلاث سماتٍ رئيسية:

الأولى: جمال وقعه في السمع.

الثانية: انسجامه الكامل في المعنى.

الثالثة: اتساع دلالته لما لا تتسع له عادة دلالات الألفاظ الأخرى.

وقد نجد هذه السمات الثلاثة في بعض الأساليب الأدبية، ولكنها لا تجتمع كلها في أسلوب أديب.

ولو اجتمعت لا تطَّرد في جميع كلامه، بل لا بُدَّ أن يشذَّ لفظ عن دائرة الفصاحة، أو يتنافر مع غيره في التركيب، أو يقصِّر عن أداء المعنى المراد إبرازه، أو لا يكون له من الجمال ما يثير الإعجاب، أو يبعث في النفوس

(١) النبأ العظيم: دكتور/ محمد دراز (١/١٣٣- ١٣٤).

الرغبة الملِّحة في القراءة أو في السماع.

أما القرآن الكريم فإنه في الذروة العليا فصاحة وبلاغة وبيانًا، لا قدرة لأحد مهما علا قدره في البلاغة والأدب أن يباريه أو يجاريه"[1].

فقد اختار الله تعالى من ألفاظ اللغة العربية أفصحها، وأسهلها على الأفهام، وأمتعها للآذان، وأقواها تأثيرًا على القلوب، وأوفاها تأدية للمعاني، ثم ركَّبَها تركيبًا محكماً، لا يدانيه في نسجه كلام البشر من قريب ولا من بعيد، وذلك لما يكمن في ألفاظه من الإيحاءات التي تتمكن من النفس، وتقتَحِم القلوب.

وما يكون في تركيبه من اتساق عجيب، وانسجام وثيق بين هذه الألفاظ، مهما تقاربت مخارج حروفها أو تباعدت.

فقد جاء رصف المباني وفق رصف المعاني على نسق بديع لا تراه إلا فى القرآن العظيم.

والناظر فى القرآن الكريم يلاحظ أنه قد امتاز بجمال لغوى، ويتضح ذلك جليا فى رصف حروفه وترتيب كلماته ترتيبا الذى فاق كل ترتيب، فإذا ما سمع القارىء له فى مخارج حروفه الصحيحة، هذا يهمس وذاك يجهر، وهذا يغن وذاك يخفى وهذا يظهر فحينئذ يتجلى للقارىء وغيره جمال لغة هذا الكتاب الحكيم، وهذا سر إعجازه العجيب.

الخاصة الثانية:

"خطاب العامة" و"خطاب الخاصة":

وهاتان غايتان أخريان متباعدتان عند الناس، فلو أنك خاطبت الأذكياء

---

(١) دراسات في علوم القرآن: د/ محمد بكر إسماعيل (١/٣٣٠- ٣٣١).

بالواضح المكشوف الذي تخاطب به الأغبياء لنزلت بهم إلى مستوًى لا يرضونه لأنفسهم في الخطاب، ولو أنك خاطبت العامة باللمحة والإشارة التي تخاطب بها الأذكياء لجئتهم من ذلك بما لا تطيقه عقولهم، فلا غنى لك – إن أردت أن تعطي كلتا الطائفتين حظها كاملًا من بيانك – أن تخاطب كل واحدة منها بغير ما تخاطب به الأخرى؛ كما تخاطب الأطفال بغير ما تخاطب به الرجال، فأما أن جملة واحدة تلقى إلى العلماء والجهلاء، وإلى الأذكياء والأغبياء، وإلى السوقة والملوك فيراها كل منهم مقدرة على مقياس عقله وعلى وفق حاجته فذلك ما لا تجده على أتمه إلا في القرآن الكريم. فهو قرآن واحد يراه البلغاء أوفى كلام بلطائف التعبير، ويراه العامة أحسن كلام وأقربه إلى عقولهم لا يلتوي على أفهامهم، ولا يحتاجون فيه إلى ترجمان وراء وضع اللغة، فهو متعة العامة والخاصة على السواء، ميسر لكل من أراد ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾(١).

أى: إرضاؤه العامة والخاصة، ومعنى هذا أن القرآن الكريم إذا قرأته على العامة، أو قرئ عليهم أحسوا جلاله وذاقوا حلاوته وفهموا منه على قدر استعدادهم ما يرضي عقولهم وعواطفهم، وكذلك الخاصة إذا قرؤوه أو قرئ عليهم أحسوا جلاله وذاقوا حلاوته وفهموا منه أكثر مما يفهم العامة ورأوا أنهم بين يدي كلام ليس كمثله كلام.

وهذا الأمر يتضح جليا فى حسن ظهوره للعامة وغيرهم حينما يسمعونه غضا طريا، رضى به العقلاء والأذكياء وغيرهم، يجدون حلاوته

(١) دراسات في علوم القرآن: د/ محمد بكر إسماعيل (١/١٤٧– ١٤٨)، والآية (١٧) سورة القمر.

لعذوبة ألفاظه ورقة أسلوبه، ولا ينفرون منه نظرا لتملكه شعورهم، وتمكنه من قلوبهم.

الخاصة الثالثة:

"إرضاؤه العقل والعاطفة ومعنى هذا أن أسلوب القرآن يخاطب العقل والقلب معا ويجمع الحق والجمال معا انظر إليه مثلا وهو في معمعان الاستدلال العقلي على البعث والإعادة في مواجهة منكريهما كيف يسوق استدلاله سوقا يهز القلوب هزا ويمتع العاطفة إمتاعا بما جاء في طي هذه الأدلة المسكتة المقنعة إذ قال الله سبحانه في سورة فصلت: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[1] وإذا قال في سورة ق: ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ * وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ * رِزْقاً لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾[2] تأمل في الأسلوب البارع الذي أقنع العقل وأمتع العاطفة في آن واحد حتى في الجملة التي هى بمثابة النتيجة من مقدمات الدليل إذ قال في الآية الأولى إن الذي أحياها لمحي الموتى وفي الآيات الأخيرة كذلك الخروج يا للجمال الساحر ويا للإعجاز الباهر الذي يستقبل عقل الإنسان وقلبه معا بأنصع الأدلة وأمتع المعروضات في هذه

---

(١) سورة فصلت الآية (٣٩).

(٢) سورة ق الآيات (٦ – ١١).

الكلمات المعدودات!

ثم انظر إلى القرآن وهو يسوق قصة يوسف مثلا كيف يأتي في خلالها بالعظات البالغة ويطلع من خلالها بالبراهين الساطعة على وجوب الاعتصام بالعفاف والشرف والأمانة إذ قال في فصل من فصول تلك الرواية الرائعة "وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ"(١) فتأمل في هذه الآية كيف قوبلت دواعي الغواية الثلاث بدواعي العفاف الثلاث مقابلة صورت من القصص الممتع جدالا عنيفا بين جند الرحمن وجند الشيطان ووضعتها أمام العقل المنصف في كفتي ميزان! وهكذا تجد القرآن كله مزيجا حلوا سائغا يخفف على النفوس أن تجرع الأدلة العقلية ويرفه عن العقول باللفتات العاطفية ويوجه العقول والعواطف معا جنبا إلى جنب لهداية الإنسان وخير الإنسان!.

وهل تسعد بمثل هذا في كلام البشر؟ لا ثم لا بل كلامهم إن وفى بحق العقل بخس العاطفة حقها وإن وفى بحق العاطفة بخس العقل حقه وبمقدار ما يقرب من أحدهما يبعد عن الآخر"(٢).

- فانظر كيف اختص القرآن الكريم بهذه الميزة وتلك الخاصية، والأسلوب البارع الذي أقنع العقل، يسوق الاستدلال الصريح لمواجهة منكرى البعث ومن على شاكلتهم سوقا بليغا مقنعا، وما ذلك إلا لأنه تنزيل من الله العزيز العليم.

---

(١) سورة يوسف الآية (٢٣).

(٢) مناهل العرفان (٢/٣١٣ – ٣١٥).

الخاصة الرابعة:

الجمال التنسيقي في رصف حروفه وتأليفها من مجموعات مؤتلفة مختلفة:

فإذا ما اقتربت بأذنك قليلًا قليلًا، فطرقت سمعك جواهر حروفه خارجة من مخارجها الصحيحة، فاجأتك منه لذة أخرى في نظم تلك الحروف ورصفها وترتيب أوضاعها فيما بينها؛ هذا ينقر وذاك يصفر، وثالث يخمس ورابع يجهر، وآخر ينزلق عليه النفَس، وآخر يحتبس عنده النفس. وهلم جرا، فترى الجمال اللغوي ماثلًا أمامك في مجموعة مختلفة مؤتلفة لا كركرة ولا ثرثرة، ولا رخاوة ولا معاظلة، ولا تناكر ولا تنافر. وهكذا ترى كلامًا ليس بالحضري الفاتر، ولا بالبدوي الخشن، بل تراه وقد امتزجت فيه جزالة البادية وفخامتها برقة الحاضرة وسلاستها، وقدر فيها الأمر تقديرًا لا يبغي بعضهما على بعض. فإذا مزيج منهما كأنما هو عصارة اللغتين وسلالتهما، أو كأنما هو نقطة الاتصال بين القبائل، عندها تلتقي أذواقهم، وعليها تأتلف قلوبهم.

ومن هذه الخصوصية والتي قبلها تتألف القشرة السطحية للجمال القرآني. وليس الشأن في هذا الغلاف إلا كشأن الأصداف مما تحويه من اللآلئ النفيسة، فإنه جلت قدرته قد أجرى سنته في نظام هذا العالم أن يغشي جلائل أسراره بأستار لا تخلو من متعة وجمال، ليكون ذلك من عوامل حفظها وبقائها بتنافس المتنافسين فيها وحرصهم عليها. انظر كيف جعل باعثة الغذاء ورابطة المحبة قوامًا لبقاء الإنسان فردًا وجماعة. فكذلك لما سبقت كلمته أن يصون علينا نفائس العلوم التي أودعها هذا الكتاب الكريم قضت حكمته أن يختار لها صوانًا يحببها إلى الناس بعذوبته،

ويغريهم عليها بطلاوته، ويكون بمنزلة "الحداء" يستحث النفوس على السير إليها. ويهون عليها وعثاء السفر في طلب كمالها. لا جرم اصطفى لها من هذا اللسان العربي المبين ذلك القالب العذب الجميل. ومن أجل ذلك سيبقى صوت القرآن أبدًا في أفواه الناس وآذانهم ما دامت فيهم حاسة تذوق وحاسة تسمع، وإن لم يكن لأكثرهم قلوب يفقهون بها حقيقة سره، وينفذون بها إلى بعيد غوره ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[1].

هل عرفت أن نظم القرآن الكريم يجمع إلى الجمال عزة وغرابة؟ وهل عرفت أن هذا الجمال كان قوة إلهية حفظ بها القرآن من الفقد والضياع؟

فاعرف الآن أن هذه الغرابة كانت قوة أخرى قامت بها حجة القرآن في التحدي والإعجاز، واعتصم بها من أيدي المعارضين والمبدلين، وأن ذلك الجمال ما كان ليكفي وحده في كف أيديهم عنه، بل كان أجدر أن يغريهم به"[2].

ومعنى هذا أن القرآن بلغ من ترابط أجزائه وتماسك كلماته وجملة وآياته وسورة مبلغا لا يداينه فيه أي كلام آخر مع طول نفسه وتنوع مقاصده وتلوينه في الموضوع الواحد وآية ذلك أنك إذا تأملت في القرآن الكريم وجدت منه جسما واحدا كاملا لا تنافر بين أعضائه ولا اضطراب. فإذا هو وحدة متماسكة متآلفة على حين أنه كثرة متنوعة متخالفة فبين كلمات الجملة السورة الواحدة من والتناسق ما جعلها رائعة التجانس والتضام، وبين حمل السورة الواحدة من التشابك والترابط ما جعلها وحدة

---

(١) سورة الحجر الآية رقم (٩).

(٢) النبأ العظيم: دكتور/ محمد دراز (١/١٣٥- ١٣٦).

صغيرة متآخذة الأجزاء متعانقة الآيات وبين سور القرآن من التناسب ما جعله كتابا سوي الخلق حسن السمت ﴿ قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾[1].

يعرف هذا الإحكام والترابط في القرآن الكريم كل من ألقى نظره إلى التناسب الشائع فيه من غير تفكك ولا تخاذل ولا انحلال ولا تنافر بينما الموضوعات مختلفة متنوعة فمن تشريع إلى قصص إلى جدل إلى وصف إلى غير ذلك.

ومن الملاحظ للقارىء، وغيره "أنّ اللفظ المفرد له بلاغة خاصة في ضمن الأسلوب، وأن كل كلمة في جملة من الكلام تدل بمفردها على معانٍ تتساوق مع المعنى الجملي للكلام، وأن كل كلمة تكون بمفردها صورة بيانية تكون جزءًا من الصورة العامَّة للقول، وقلنا: إن ذلك ليس معناه أن الكلمة لو جردت من الكلام تعطي وحدها ذلك الإشراق، ولكن ينبثق نورها بالتضام مع غيرها من غير أن يفنى ضوءها في ضوئه، ولا تنمحي صورتها البيانية التي أشرقت بهذا التضامّ.

وقلنا: إنَّ ذلك لم ينكره أحد حتى الجرجاني[2] الذي تشدَّد في اعتبار الأسلوب وحده هو سر الإعجاز، من غير التفات إلى معاني المفردات.

---

(١) سورة الزمر الآية رقم (٢٨).

(٢) عبد القاهر بن عبد الرحمن أبو بكر الجرجاني النحوي المشهور، كان من كبار أئمة العربية صنف المغني في شرح الإيضاح في نحو ثلاثين مجلدا والمقتصد في شرح الصغير وكتاب تتمة العروض والعوامل المائة والمفتاح، وله العمدة في التصريف والجمل، وكان شافعي المذهب أشعري الأصول، توفي سنة إحدى وسبعين وأربع مائة. الوافى بالوفيات (٣٤/١٩)، سير أعلام النبلاء (٤٣٢/١٨)، فوات الوفيات (٣٦٩/٢).

وإذا أردنا أن نحرِّر القول الذي رآه الأكثرون، وخالف فيه الجرجاني ومن لفّ لفه، فإننا نقول: إنَّ كلمات القرآن لها في تناسق حروفها وتلاقي مخارجها إشراق بلاغي، ولكن لا ينكشف ذلك الإشراق إلَّا بالتضام، أي: إنَّ الإشراق ذاتي، وهو الأصل، ولكن شرط ظهوره تضام الكلمة مع غيرها.

وفي هذا المقام نتكلَّم على الأسلوب والصور البيانية التي تتكون منه، والتآخي بين ألفاظه في النغم وفي تناسق القول؛ بحيث تكون كل كلمة في موضعها الذي وضعت لا تنفر من أختها، ولا يمكن تغييرها، وكأن الكلمات في الأسلوب نجوم السماء وأبراجها، لا تزايل أماكنها، ولا تخرج من مواطنها، ويقول في ذلك القاضي عياض[1] في "الشفاء":

"الوجه الثاني من إعجازه صورة نظمه العجيب، والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب، ومناهج نظمها ونثرها الذي جاء عليه، ولم يوجد قبله ولا بعده نظير له، ولا استطاع أحد مماثلة شيء منه، بل حارت فيه عقولهم، وتدلهت دونه أحلامهم، ولم يهتدوا إلى مثله في جنس كلامهم من نثر أو نظم أو سجع أو رجز أو شعر"[2].

---

(١) القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض ابن محمد بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي؛ كان إمام وقته في الحديث وعلومه والنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم وصنف التصانيف المفيدة منها: "الإكمال في شرح كتاب مسلم" كمل به: "المعلم في شرح مسلم" للمازري، ومنها: "مشارق الأنوار"، توفي سنة أربع وأربعين وخمسمائة. وفيات الأعيان (٤٨٣/٣)، طبقات الحفاظ السيوطى (٤٧٠/١)،

(٢) المعجزة الكبرى القرآن: محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة (٩٣/١).

وهذا من براعة القرآن الكريم من حيث الانتقال من موطن إلى موطن، وموضع إلى موضع، مع تنوع أغراضه وطول آياته وسوره، وهذا كله فى صورة بديعة محكمة فى غاية الإتقان والإحكام، وقد لا يشعر القارىء أو السامع بذلك الانتقال، فسبحان من هذا كلامه.

الخاصة الخامسة:

"براعته في تصريف القول وثروته في أفانين الكلام ومعنى هذا أنه يورد المعنى الواحد بألفاظ وبطرق مختلفة بمقدرة فائقة خارقة تنقطع في حلبتها أنفاس الموهوبين من الفصحاء والبلغاء ولسنا هنا بسبيل الاستيعاب والاستقراء ولكنها أمثلة تهديك ونماذج تكفيك.

أ- **منها تعبيره عن طلب الفعل من المخاطبين بالوجوه الآتية:**

١- الإتيان بصريح مادة الأمر نحو قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ﴾(١).

٢- والأخبار بأن الفعل مكتوب على المكلفين نحو: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾(٢).

٣- والإخبار بكونه على الناس نحو: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾(٣).

٤- والإخبار عن المكلفين بالفعل المطلوب منه نحو: ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ ﴾(٤) قروء. أى: مطلوب منهن أن يتربصن.

---

(١) سورة النساء الآية (١٨٣).

(٢) سورة البقرة الآية (٢٨).

(٣) سورة آل عمران الآية (٩٧).

(٤) سورة البقرة الآية (٢٢٨).

٥- والإخبار عن المبتدأ بمعنى يطلب تحقيقه من غيره نحو: ﴿ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً ﴾[١] أي: مطلوب من المخاطبين تأمين دخل الحرم.

٦- وطلب الفعل بصيغة فعل الأمر نحو حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى أو بلام الأمر نحو: ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾[٢].

٧- والإخبار عن الفعل بأنه خير: ﴿ وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ ﴾[٣].

٨- ووصف الفعل وصفا عنوانيا بأنه بر نحو: ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى ﴾[٤].

٩- ووصف الفعل بالفريضة نحو: ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ ﴾[٥] أي: من بذل المهور والنفقة.

١٠- وترتيب الوعد والثواب على الفعل نحو: ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[٦].

ب- ومنها تعبيره عن النهي بالوسائل الآتية:

١- الإتيان في جانب الفعل بمادة الفعل بمادة النهي نحو: ﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى

(١) سورة آل عمران الآية (٩٧).
(٢) سورة الحج الآية (٢٩).
(٣) سورة البقرة الآية (٢٢٠).
(٤) سورة البقرة الآية (١٨٩).
(٥) سورة الأحزاب الآية (٥٠).
(٦) سورة البقرة الآية (٢٤٥).

إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ ﴾[١].

٢- والإتيان في جانبه بمادة التحريم نحو: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْأَثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾[٢].

٣- ونفى الحل عنه نحو: ﴿ لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً ﴾[٣].

٤- والنهي عنه بلفظ لا نحو: ﴿ وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[٤].

٥- ووصفه بأنه ليس برا نحو: ﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا ﴾[٥].

٦- ووصفه بأنه شر نحو: ﴿ وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ ﴾[٦].

٧- وذكر الفعل مقرونا بالوعيد نحو: ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[٧] الخ.

ج- **ومنها تعبيره عن إباحة الفعل بالطرق الآتية:**

١- التصريح في جانبه بمادة الحل نحو: ﴿ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ ﴾[٨].

---

(١) سورة الممتحنة الآية (٩).
(٢) سورة الأعراف الآية (٣٣).
(٣) سورة النساء الآية (١٩).
(٤) سورة الأنعام الآية (١٥٢).
(٥) سورة البقرة الآية (١٨٩).
(٦) سورة آل عمران الآية (١٨٠).
(٧) سورة البقرة الآية (٣٤).
(٨) سورة المائدة الآية (١).

٢- والأمر به مع قرينه صارفة عن الطلب نحو: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا ﴾[١].

٣- ونفي الإثم عن الفعل نحو: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾[٢].

٤- ونفي الحرج عنه نحو: ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾[٣] أي: في ترك القتال أو في الأكل من البيوت.

٥- ونفي الجناح عنه في غير ما ادعى فيه الحرمة نحو: ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ الخ"[٤].

فهو يورد المعنى الواحد بألفاظ مختلفة، وطرق متعددة، بقدرة عجيبة فائقة، تنقطع في مضمارها أنفاس الفصحاء والبلغاء.

فهو ينتقل بك بين الأساليب الإنشائية والخبرية في المعنى المقصود إبرازه "ويسلك مسالك شتَّى في التعبير والتصوير والترغيب والترهيب، من غير أن تشعر بفجوة بين أسلوب وأسلوب، أو تنافر بين كلمة وأخرى، ومن غير أن تشعر بتغيير يذكر بين الجوِّ العام للنص.

وهذا ضَرْبٌ فريد في الإعجاز البياني، جدَّ في طلبه رجال لم يلههم عنه تجارة ولا بيع، فنقَّبوا عن لطائفه، ودقائقه ونفحاته وإشراقاته، فخرجوا بعد التحري وطول التأمُّل والنظر بزاد غير قليل، زاد في إيمانهم بعظمة هذا الكتاب وقدرته على التحدي، وتأبيه على المعارضة والمطاولة، في أي وجه

---

(١) سورة الأعراف الآية (٣١).

(٢) سورة البقرة الآية (١٧٣).

(٣) سورة النور الآية (٦١).

(٤) مناهل العرفان (٣١٨/٢ – ٣٢٢) باختصار، والآية رقم (٩٣) سورة المائدة.

من وجوه الجمال الذي تحلَّى به في كل جزئية من جزئياته"[١].

وهكذا يجد القارىء القرآن الكريم يتفنن في أداء المعنى الواحد بألفاظ متنوعة وطرق متعددة بين إنشاء وإخبار وإظهار وإضمار وتكلم وغيبة وخطاب، والفعل الماضى والمضارع والأمر وجملة اسمية وفعلية، ووعد ووعيد إلى غير ذلك من المعانى التى عبر عنها.

وهو حينئذ لا يكاد يحدث له أى خلل أو اضطراب، بل يحتفظ دائما بالمكانة العليا، والطريقة المثلى من البلاغة الحاذقة والرصف المتين.

حتى أن الناظر فيه يجد أنه لا يمل القارئ له ولا يسأم السامع له مهما كثرت القراءة والسماع بل ينتقل كل منهما في مراقى الجمال والعذوبة.

الخاصة السادسة:

"البيان" و"الإجمال":

وهذه عجيبة أخرى تجدها في القرآن ولا تجدها فيما سواه. ذلك أن الناس إذا عمدوا إلى تحديد أغراضهم لم تتسع لتأويل. وإذا أجملوها ذهبوا إلا الإبهام أو الإلباس. أو إلى اللغو الذي لا يفيد. ولا يكاد يجتمع لهم هذان الطرفان في كلام واحد.

وتقرأ القطعة من القرآن فنجد في ألفاظها من الشفوف، والملاسة والإحكام والخلو من كل غريب عن الغرض ما يتسابق به مغزاها إلى نفسها دون كد خاطر ولا استعادة حديث. كأنك لا تسمع كلامًا ولغات بل ترى صورًا وحقائق ماثلة. وهكذا يخيل إليك أنك قد أحطت به خُبرًا ووقفت على معناه محدودًا؛ هذا ولو رجعت إليه كرة أخرى لرأيتك منه بإزاء معنى جديد

---

(١) دراسات في علوم القرآن د/ محمد بكر إسماعيل (١/٣٤٠).

غير الذي سبق إلى فهمك أول مرة، وكذلك.. حتى ترى للجملة الواحدة أو الكلمة الواحدة وجوهًا عدة. كلها صحيح أو محتمل للصحة، كأنما هي فص من الماس يعطيك كل ضلع منه شعاعًا، فإذا نظرت إلى أضلاعه جملة بهرتك بألوان الطيف كلها، فلا تدري ماذا تأخذ عينك وماذا تدع. ولعلك لو وكلت النظر فيها إلى غيرك رأى منها أكثر مما رأيت. وهكذا نجد كتابًا مفتوحًا مع الزمان يأخذ كل منه ما يسر له؛ بل ترى محيطًا مترامي الأطراف لا تحده عقول الأفراد ولا الأجيال"(١).

يمكن القول بأن القرآن الكريم قد جمع بين الإجمال والبيان مع أنهما غايتان متقابلتان "لا يجتمعان في كلام واحد للناس بل كلامهم إما مجمل وإما مبين. لأن الكلمة إما واضحة المعنى لا تحتاج إلى بيان وإما خفية المعنى تحتاج إلى بيان ولكن القرآن وحده هو الذي انحرقت له العادة فتسمع الجملة منه وإذا هي بينة مجملة في آن واحد أما أنها بينة أو مبينة بتشديد الياء وفتحها فلأنها واضحة المغزى وضوحا يريح النفس من عناء التنقيب والبحث لأول وهلة فإذا أمنعت النظر فيها لاحت منها معان جديدة كلها صحيح أو محتمل لأن يكون صحيحا"(٢).

وهكذا كان تنوع الموضوعات هو الباعث الأهم على تنوع الأسلوب القرآني، فما هما بالأسلوبين المتعارضين اللذين لا تربط بينهما صلة، وإنما هو أسلوب واحد يشتد أو يلين، ويفصل أو يجمل تبعا لحال المخاطبين. وهذا سر من أسرار الإعجاز التي يمتاز بها القرآن الكريم.

---

(١) النبأ العظيم: دكتور/ محمد دراز (١/١٥١- ١٥٢).

(٢) مناهل العرفان (٢/٣٢٣).

وعليه فالقرآن الكريم قد حوى الإجمال والبيان بصورة لم يسبق إليها أى كتاب آخر، ومعانيه فى غاية البيان والوضوح، ترى المجمل قد أوضحه مقام آخر فى صورة بديعة ومنظر يتراءى لدى القارىء أنه من قبيل التكرار، وما هو منه بقريب.

الخاصة السابعة:

"القصد في اللفظ" و"الوفاء بحق المعنى":

نهايتان كل من حاول أن يجمع بينهما وقف منهما موقف الزوج بين ضرتين لا يستطيع أن يعدل بينهما دون ميل ما إلى إحداهما:

فالذي يعمد إلى ادخار لفظه وعدم الإنفاق منه إلا على حد الضرورة لا ينفك من أن يحيف على المعنى قليلًا أو كثيرًا، ذلك أنه إما أن يؤدي لك مراده جملة لا تفصيلًا، فيكون سبيله سبيل من يقول في باب المحاجة: "صدقوا، أو كذبوا" وفي باب الوصف "حسن، أو قبيح" وفي باب الإخبار: "كان أو لم يكن" وفي باب الطلب: "افعل، أولا تفعل" لا زائد على ذلك. وإما أن يذهب فيه إلى شيء من التفصيل، ولكنه إذ يأخذه الحذر من الإكثار والإسراف يبذل جهده في ضم أطرافه وحذف ما استطاع من أدوات التمهيد والتشويق، ووسائل التقريب والتثبيت ... والذي يعمد إلى الوفاء بحق المعنى وتحليله إلى عناصره؛ وإبراز كل دقائقه "بقدر ما يحيط به علمه وما يؤديه إليه إلهامه" لا يجد له بدًّا من أن يمد في نفسه مدًّا؛ لأنه لا يجد في القليل من اللفظ ما يشفي صدره، ويؤدي عن نفسه رسالتها كاملة. فإذا أعطى نفسه حظها من ذلك لا يلبث أن يباعد ما بين أطراف كلامه، ويبطئ بك في الوصول إلى غايته، فتحس بقوة نشاطك وباعته إقبالك آخذتين في

التضاؤل والاضمحلال"[1].

فقد قصد القرآن في اللفظ مع وفائه بالمعنى، ومعنى هذا "إنك في كل من جمل القرآن تجد بيانا قاصدا مقدرا على حاجة النفوس البشرية من الهداية الإلهية دون أن يزيد اللفظ على المعنى أو يقصر عن الوفاء بحاجات الخلق من هداية الخالق ومع هذا القصد اللفظي البريء من الإسراف والتقتير تجده قد جلى لك المعنى في صورة كاملة لا تنقص شيئا يعتبر عنصرا أصليا فيها أو حلية مكملة لها كما أنها لا تزيد شيئا يعتبر دخيلا فيها وغريبا عنها بل هو كما قال الله: ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾[2].

ولا يمكن أن تظفر في غير القرآن بمثل هذا الذي تظفر به في القرآن"[3].

بعد النظر فى القرآن الكريم يرى الباحث أنه قد حوى المعانى الواضحة ذى الألفاظ الرصينة، ولم تتسم بالغموض والتكلف كما ظفر بالقصد في اللفظ مع الوفاء بالمعنى، وتلك ظاهرة بارزة فيه كله يستوي فيها مواضع إجماله وهى قائمة مقام الإيجاز، ومواضع تفصيله التي هى قائمة مقام الإطناب ولذلك من اللائق أن نسميه إيجازا كله لأننا نراه في كلا المقامين لا يتجاوز القصد ولا يميل إلى الإسراف فى المعانى والخروج بها عن مقصودها.

ومن هذه الخصائص أيضا:

١- إعادة المعنى بأكثر من صيغة لإبراز أوجه الإعجاز التى انفرد بها

(١) النبأ العظيم: دكتور/ محمد دراز (١/١٤٣- ١٤٤).

(٢) سورة هود الآية (١).

(٣) مناهل العرفان (٢/٣٢٤).

القرآن الكريم.

٢- إحياء المعانى وتقويتها وزيادة الانتباه إليها لتأسر القلوب.

٣- يتسم أسلوبه بالدلالات البلاغية التى توجب الانبهار لنسقه الفريد والعجيب.

٤- التصوير البليغ للأحداث، وأنه أفصح أسلوب ولا يمكن لأى أسلوب آخر أن يضاهيه، ولا يوجد فى كلام العرب قاطبة أبلغ منه ولا أوجز ولا أجلى منه.

٥- أن أسلوبه الفريد يحمل من أوجه الإعجاز ما يفتح المعانى لتتناسب انسيابا، وفق البناء اللغوى لكل معنى.

٦- كذلك أسلوبه العجيب فى القدرة على عرض السورة فى لمسات سريعة، وعبارات منقطعة، ونبرات وسمات ولمحات حية.

إذا ما تقرر هذا لديك – أيها القارىء – فاعلم أن القرآن قد جاء بهذا الأسلوب البليغ "الخلاب الذي اشتمل على تلك الخصائص العليا التي تحدثنا عنها والتي لم تجتمع بل لم توجد خاصة واحدة منها في كلام على نحو ما وجدت في القرآن وكل ما كان من هذا القبيل فهو لا شك معجز خصوصا أن النبي -ﷺ- تحدى به فأعجز أساطين الفصحاء وأعيا مقاويل البلغاء وأخرس ألسنة فحول البيان من أهل صناعة اللسان وذلك في عصر كانت القوى فيه قد توافرت على الإجادة والتبريز في هذا الميدان وفي أمة كانت مواهبها محشودة للتفوق في هذه الناحية وإذا كان أهل الصناعة هؤلاء قد عجزوا عن معارضة القرآن فغيرهم أشد عجزا وأفحش عيا"[(١)].

(١) مناهل العرفان (٣٣٢/٢).

المبحث الثانى

التنويع في أساليب البيان القرآني

يلاحظ القارئ ذو الحس الرائع التنويع البليغ "العجيب البديع في أساليب الأداء البياني القرآني، حتى في عرض الأقسام أو الأنواع التي تدخل في مقسم واحد، أو جنس واحد، أو تدخل تحت عنوان واحد، إيثارا للجمال الفني بالتنويع المجدد لتنبيه الفكر، أو إيثارا للتجديد في الإبداع الاختياري، مع كل نوع أو قسم أو صنف، فمن شأن التجديد تحريك الذهن في مختلفات من الأساليب، والتمكين من وضع أفكار وأغراض بيانية وتربوية في ظلال النص، تكتشف حينا بعد حين، كلما تكررت قراءة النص، أو تكرر سماعه، مع إعطاء النص في موضوعه تفردا بصياغته الكلية، كتفرد كل مخلوق من مخلوقات الله -ﷻ- بهيكل وسمات خاصة تميزه عن غيره من أفراد جنسه، ونوعه، وصنفه، مراعاة للإبداع الاختياري في الأفراد، والأصناف، والأنواع، والأجناس، وربما في كل جزء من أجزاء الفرد الواحد.

وقد يقترن بإيثار الجمال الفني غرض بياني آخر، كاختيار الأسلوب الأكثر ملاءمة للقسم أو النوع أو الصنف أو الفرد الذي جرى التنويع في الأسلوب عند ذكره، أو الأسلوب الأكثر مضامين فكرية يراد الدلالة عليها مع ذكره، أو الأكثر بلاغة وإيجازا واقتصادا في العبارة بالنسبة إلى مضامينه الفكرية التي يراد بيانها، إلى غير ذلك من أغراض"[(١)].

بادىء ذى بدء يمكن لى أن أجلى تعريف البيان.

---

(١) البلاغة العربية.عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة (٣٢٢/٢).

"والبَيانُ: الْفَصَاحَةُ واللَّسَن، وكلامٌ بيِّن فَصيح. والبَيان: الإفصاح مَعَ ذَكَاءٍ. والبَيِّن مِنَ الرِّجَالِ: الْفَصِيحُ. ابْنُ شُمَيْلٍ[1]: البَيِّن مِنَ الرِّجَالِ السَّمْحِ اللِّسَانِ الْفَصِيحُ الظَّرِيفُ الْعَالِي الْكَلَامِ ... وفلانٌ أَبْيَن مِنْ فُلَانٍ أَى: أَفصح مِنْهُ وأَوضح كَلَامًا. وَرَجُلٌ بَيِّنٌ: فَصِيحٌ، وَالْجَمْعُ أَبْيناء"[2].

ومن خلال هذا النص أنتهى إلى أمرين:

١- أن البيان هو الكشف والإيضاح وإظهار المقصود بأبلغ لفظ.

٢- أن البيان هو فصاحة اللسان وعلو الكلام، وذكاء القلب.

وقد ورد مصطلح البيان ومشتقاته كثيرا في القرآن الكريم، ولا يخرج معناه عن هذين الأمرين.

قال -ﷻ-: ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ ﴾[3]، ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾[4].

وهو علم من علوم العربية ذات الأهمية الكبرى، ومعدود من جملة العلوم الإسلامية ولذلك كان البيان "من أهم ما اعتمد عليه في خدمة العقيدة

---

(١) النضر بن شميل بن خرشة بن زيد المازني ابن كلثوم بن عنزة بن تميم. العلامة، الإمام، الحافظ، أبو الحسن المازني، البصري، النحوي. وثقه يحيى بن معين. وكان من فصحاء الناس وعلمائهم بالأدب، وأيام الناس. وهو من أصحاب الخليل ابن أحمد. وله كتاب: "السلاح"، وكتاب: "المعاني"، وكتاب: "غريب الحديث"، وكتاب: "المدخل إلى كتاب العين للخليل بن أحمد"، وغير من التصانيف. مات في أول سنة أربع ومائتين. سير أعلام النبلاء (٣٢٨/٩)، وفيات الأعيان (٣٩٧/٥)، البلغة فى تراجم أئمة النحو واللغة (٧٩/١).

(٢) لسان العرب (٦٨/١٣) مادة (البيان).

(٣) سورة آل عمران الآية (١٣٨).

(٤) سورة الرحمن الآية (٣ - ٤).

الإسلامية، لأنه يعمل على إبراز ما في القرآن الكريم وهو كتاب العقيدة الإسلامية، وآياتها المعجزة من وجوه الجمال التى يمتاز بها، ويبين سر الإعجاز الذى بان كلام الله تعالى وامتاز به من كلام البشر، سواء من ناحية مقاصده ومعانيه، أو من ناحية أساليب تأديتها والعبارة عنه"(١).

أما تذوقه وتفصيل القول فى عناصره ومحاولة الحكم عليه بالحسن والإصابة فإنه عمل "يحتاج إلى مرانة وثقافة وإدمان نظر، واستثارة لذوق والمعرفة، وكل ذلك لا يأتى إلا بعد التجربة والارتقاء الذهنى"(٢).

وقد يقترن بإيثار الجمال فى عرض الأسلوب غرض بياني آخر، "كاختيار الأسلوب الأكثر ملاءمة للقسم أو النوع أو الصنف أو الفرد الذي جرى التنويع في الأسلوب عند ذكره، أو الأسلوب الأكثر مضامين فكرية يراد الدلالة عليها مع ذكره، أو الأكثر بلاغة وإيجازا واقتصادا في العبارة بالنسبة إلى مضامينه الفكرية التي يراد بيانها، إلى غير ذلك من أغراض.

والغفلة عن ملاحظة هذا التنويع في أساليب الأداء البياني، تجعل المتدبر لكلام الله -ﷻ- لا يدرك الترابط الفكري في موضوع النص، فيفهمه وحدات مجزآت غير مترابطات، ويند عنه بسبب ذلك روائع فى مفاهيم، وقد يقع في أغاليط، إذ يحاول أن ينتزع ارتباطا من قريب أو بعيد لأدنى مناسبة، أو شبهة مناسبة، أو يخترع من عنده أمورا لا أصل لها ولا دليل عليها"(٣).

---

(١) البيان العربى دراسة فى تطور الفكرة البلاغية عند العرب ومناهجها ومصادرها الكبرى: د/ بدوى طبانه (ص ١٨).

(٢) نفس المصدر (ص ١٦).

(٣) البلاغة العربية عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة (٢/٣٢٢ - ٣٢٣).

وفيما يلي بعض من الأمثلة الدالة على ظاهرة التنويع في أساليب الأداء البياني في القرآن:

المثال الأول:

﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾[١].

هذا القسم الأول من المنافقين الذين تحدثت عنهم الآيات، وقد جاء بأسلوب: "وَإِذْ يَقُولُ" بإذ الظرفية، أى: واذكر إذ، وبالفعل المضارع "يَقُولُ" الذي يدل على أن المقالة قد دارت على الألسنة حتى شاعت، فقالها المنافقون، وقالها تأثرا بهم الذين في قلوبهم مرض دون النفاق، وهو ما يعرف بمرض ضعيف الإيمان.

وهؤلاء هم المظهرون للإيمان المبطنون الكفر. ""وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ": هم ضعفاء الإيمان الذين لم يتمكن الإيمان من قلوبهم، فهم على حرف، والعطف دال على التغاير، نبه عليهم على جهة الذم"[٢]. ومن المعلوم أن صيغة المضارع تدل على "استمرار القول واستحضار صورته"[٣].

فهولاء لم يصلوا إلى الجزم بالنفاق ولا الإخلاص في الإيمان "بل هم على حرف فعندهم نوع النفاق، فالآية من الاحتباك[٤]: ذكر النفاق أولاً دال

---

(١) سورة الأحزاب الآية (١٢).

(٢) البحر المحيط (٤٥٩/٨).

(٣) إرشاد العقل السليم (٩٤/٧).

(٤) **الاحتباك**: هو أن يحذف من الأوائل ما جاء نظيره أو مقابلة في الأواخر، ويحذف من الأواخر ما جاء نظيره أو مقابلة في الأوائل. البلاغة العربية (٥٤/٢).

عليه ثانياً، وذكر المرض ثانياً دليل عليه أولاً"[١].

وقولهم: "مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا"، هو على سبيل السخرية والاستهزاء، إذ لو اعتقدوا أنه رسول الله حقيقة ما قالوا هذه المقالة.

أما القسم الثاني منهم فقد جاء أسلوب عرضه:

﴿ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾[٢].

من الملاحظ أنه قد جاء بأسلوب: "وَإِذْ قَالَتْ" المقرون بإذ الظرفية، أى: واذكر إذ، وبالفعل الماضي "قال" الذي يدل على أن هذه المقالة قد قيلت من طائفة منهم، ثم لم تتكرر مرة أخرى.

وقد يسأل سائل لم جاء بالفعل مؤنثا؟ ويجاب عنه: بأنه قد "أنث الفعل إشارة إلى رخاوتهم وتأنثهم في الأقوال والأفعال"[٣].

وقد عدل هؤلاء عن الاسم – الذي سماها به النبي -ﷺ- من المدينة وطيبة مع حسنه فى ذاته – إلى الاسم الذي كانت تدعى به قديماً "مع احتمال قبحه باشتقاقه من الثرب الذي هو اللوم والتعنيف إظهاراً للعدول عن الإسلام"[٤].

وأما القسم الثالث منهم فقد جاء أسلوب عرضه كما يلي:

---

(١) نظم الدرر (٣٠٤/١٥).
(٢) سورة الأحزاب الآية (١٣).
(٣) نظم الدرر (٣٠٦/١٥).
(٤) نفس المصدر ونفس الصفحة.

﴿ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾.

فجاء بأسلوب: "وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ" بصيغة الفعل المضارع، للدلالة على تكرار الاستئذان من أفراد هذا الفريق، وحدوثه وتجدده، ولم يأت على نسق ما سبق من استعمال كلمة "إذ" قبله، لأن حالتهم هذه كانت مستمرة لا تستدعي التذكير بزمن حدوثها ووقوعها.

وقد اعتنى القرآن الكريم بتربية هذا الفريق المستأذن، وببيان حالته حينئذ وإقناعه بالطريقة المثلى، وذلك لتصحيح العناصر المختلة لديه من عناصر الإيمان وإيجادها على الوجه اللائق.

"وجملة "وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ" عطف على جملة "قَالَتْ طَائِفَةٌ" ، وجيء فيها بالفعل المضارع للإشارة إلى أنهم يلحون في الاستئذان ويكررونه ويجددونه"(١).

وقد جاء بجمع الكثرة فى قوله تعالى: "بُيُوتَنَا" إشارة إلى كثرة أصحابهم المنافقين"(٢).

ومن الملاحظ أنه لم يقرن هذا التكذيب الظاهر بمؤكد صريح لإظهار أن كذب هؤلاء واضح غير محتاج إلى تأكيد، وهذا من بلاغة القرآن الكريم فى ألفاظه الرصينة.

وغاية ما فى الأمر أن حالهم واضح لذى عين، ولا يريدون الذهاب لحمايتها، وقد أكذبهم الله تعالى "بأنهم لا يخافون ذلك، وإنما يريدون الفرار"(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (٢١/٢٨٥).

(٢) نظم الدرر (١٥/٣٠٧).

(٣) البحر المحيط (٨/٤٦٠).

وأما القسم الرابع من هؤلاء، وما كان منهم من التعويق[1] والنفور والتثبيط[2] عن الخروج مع الرسول -ﷺ- لمواجهة عدوه، فقد جاء الحديث عنه كما يلي فى قوله -ﷻ-:

﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[3].

يمكن القول بأن الأسلوب قد اختلف هنا اختلافا كليا، ونلاحظ أن التعويق قد عرضه الله -ﷻ- وصفا ثابتا لفريق من المنافقين، ولم يذكره على أنه مجرد شىء طارئ استدعته حالة مفاجئة أو ضرورية، وهو الأمر الذي كان في غزوة الأحزاب، فحصل فى قسم من هؤلاء التعويق والتثبيط.

وقبل ذكر هذا القسم بين الله تعالى تحقق علمه بهم، وذلك فى قوله سبحانه: "قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ" ليشير هذا الأسلوب إشارة تهديد لهم ووعيد شديد، بأن حالهم مكشوف ومعلوم لله تعالى، وبأن عقاب الله ينتظرهم لا محالة.

---

(١) العَوْقُ: الحَبْسُ والصَّرْفُ، والتَّثْبيطُ، كالتَّعْويق والاعْتياق، والرجُلُ الذي لا خَيْرَ عندَهُ، ويُضَمُّ، ج: أعْواقٌ، ومَنْ يُعَوِّقُ الناسَ عن الخَيْرِ، كالعَوْقَةِ. القاموس المحيط (٩١٣/١) مادة (عوق)، المفردات فى غريب القرآن (٥٩٧/١) مادة (عوق).

(٢) "ثبط: اللَّيْثُ: ثَبَّطَه عَنِ الشَّيْءِ تَثْبِيطاً إِذا شغَلَه عَنْهُ. وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيز: "وَلكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبعاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ"؛ قال أَبو إِسحق: التَّثْبِيطُ رَدُّكَ الإِنسانَ عَنِ الشَّيْءِ يَفْعَلُهُ، أَي: كَرِهَ اللَّهُ أَن يَخْرجوا مَعَكُمْ فردَّهم عَنِ الْخُرُوجِ. وثَبَطَه عَنِ الشَّيْءِ ثَبْطاً وثَبَّطَه: رَيَّثه وثَبَّته. وثَبَّطه عَلَى الأَمر فتَثَبَّط: وقَّفَه عَلَيْهِ فتوقَّف. وأَثْبَطه المَرَضُ إِذا لَمْ يَكَدْ يُفارِقُه. وثَبَطْتُ الرجلَ ثَبْطاً: حبَسْتُه، بِالتَّخْفِيفِ". لسان العرب (٢٦٧/٧) مادة (ثبط)، والآية (٤٦) سورة التوبة.

(٣) سورة الأحزاب الآية (١٨).

وهذا القول "استئناف بياني ناشىء عن قوله: ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ ﴾[1] لأن ذلك يثير سؤالا يهجس في نفوسهم أنهم يخفون مقاصدهم عن رسول الله -ﷺ- فلا يشعر بمرادهم من الاستئذان، فأمر أن يقول لهم "قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ" أي: فالله ينبىء رسوله بكم بأن فعل أولئك تعويق للمؤمنين. وقد جعل هذا الاستئناف تخلصا لذكر فريق آخر من المعوقين"[2].

ومن الملاحظ أن القرآن الكريم قد عرض حال هؤلاء بأساليب متنوعة، ومتعددة، لئلا تسرى إلى النفس النفور من القراءة، وللتشويق إلى معرفة حال هؤلاء، وهو يعنى كثيرًا بالعبارات والأساليب، وهذا ما يعرف بالذوق الرفيع والمستنير فى عرض مضمون الكلام.

"فمع التنويع في الأسلوب لإكساب التعبير جمالا فنيا، وإبداعا معجبا، اختير لعرض كل قسم الأسلوب الأكثر ملاءمة له، والأكثر مضامين فكرية يراد الدلالة عليها مع ذكره، كإضافة أن المعوقين معلومون لله -ﷻ-، وأن تعويقهم لإخوانهم صفة ثابتة من صفاتهم، وملازمة لهم في كل الأحوال، فهم معوقون دائما، وقائلون في كل المعارك لإخوانهم: هلم إلينا، لا تخرجوا مع محمد إلى قتال"[3].

وعلى الباحث أن يعى ذلك فى استخدام الكلمات التي تفيد في جمال الأسلوب، وقد لاحظنا من خلال هذه الأساليب وتلك التعبيرات، والتي تصور ما وقع من هؤلاء من وقائع تلفت النظر، وتثلج الفؤاد، وتثير الإعجاب،

(١) سورة الأحزاب الآية (١٧).
(٢) التحرير والتنوير (٢٢٣/٢١).
(٣) البلاغة العربية (٣٢٤/٢ - ٣٢٥).

دالة على ما في التعبير القرآنى من إبداع عجيب استتبعه التأمل الأنيق فى كيفية إيراد تلك التعبيرات.

المثال الثانى:

يجد المتدبر لسورة (ق) الشريفة تنويعا رائعا في عرض الأدلة، لدفع شبهات منكري البعث، ومن سلك مسلكهم فقد جاء فيها ما يلي:

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾[1].

هذا القول الكريم فيه ما فيه من دفع شبهة مشركى مكة أن ما يتلاشى من أجسادهم بعوامل الفناء في الأرض يجعل إعادتهم إلى ما كانوا عليه أمراً مستحيلاً فى وجهة نظرهم وذلك للجهل به وكيفيته، فجاء البيان القرآنى مثبتا علم الله -ﷻ- بكل حركة تغيير تحدث في أجساد الموتى، وهو مسجل في كتاب يحفظ كل شىء ويحصيها عليهم فلا يخفى عن علم الله سبحانه شيء.

فهو رد لقولهم: ﴿ ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾[2] وإزاحة له. وقد فصلت الجملة بدون عطف "لأنها ابتداء كلام لرد كلامهم، وهذا هو الأليق بنظم الكلام"[3].

والمراد بقوله تعالى: "وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ" "أي: حافظ لعدتهم وأسمائهم ولكل شيء من الأشياء، وهو اللوح المحفوظ"[4].

وجاء أيضا:

---

(١) سورة ق آية (٤).

(٢) سورة ق آية (٣).

(٣) التحرير والتنوير (٢٨١/١٦)

(٤) فتح القدير (٨٥/٥)

﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴾[1].

جاءت الآية هنا بأسلوب توجيه أنظار منكري البعث وأشياعهم إلى آثار قدرة الله -ﷻ- في الكون الفسيح، في السماء والأرض، وما استتبعه من أشياء هى في الخلق أكبر من خلق الناس، للتنبيه على دليل عقلي يدل مَن له بصيرة على أن خالق السماوات والأرض، ومدبر أمورهما لا بد وأن يكون قادرا على بعث الأحياء بعد فنائها، فالإنكار والاستبعاد لا أصل له مع وجود هذا البرهان الساطع والدليل القاطع.

والاستفهام هنا للتقريع والتوبيخ "أي: كيف غفلوا عن النظر إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وجعلناها على هذه الصفة مرفوعة بغير عماد تعتمد عليه وزيناها بما جعلنا فيها من المصابيح وما لها من فروج"[2].

وقد جاء توجيه الأنظار لهؤلاء بأسلوب الاستفهام الذي فيه معنى التوبيخ والإنكار عليهم إذ لم يتنبهوا لهذا الدليل العقلي البين، وثبتوا على عنادهم وضلالهم.

"وقيل هاهنا: "أَفَلَمْ يَنْظُرُوا" بالفاء وفي موضع آخر "أَوَلَمْ يَنْظُرُوا"[3] بالواو لسبق إنكار الرجع فناسب التعقيب بما يشعر بالاستدلال عليه، وجيء بالنظر دون الرؤية كما في الأحقاف[4] استبعادا لاستبعادهم فكأنه قيل: النظر

---

(١) سورة ق آية (٦).

(٢) فتح القدير (٨٥/٥).

(٣) سورة الأعراف الآية (١٨٥).

(٤) فى قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ الآية رقم (٣٣) سورة الأحقاف.

كاف في حصول العلم بإمكان الرجع ولا حاجة إلى الرؤية"[1].

وقد يقال: ما السر فى إفراد لفظ السماء دون الإتيان بها مجموعة، ولم جاء لفظ: "فُرُوجٍ" بالجمع؟

يجاب عنه: أنه قد أفرد السماء هنا ولم يجمع "لأن بناءها على ما ذكر وإن كانت واحدة يدل على كمال القدرة، فإن البناء المجوف لا يمكن بانيه إكمال بنائه من غير أن يكون له فروج، وإن اختل ذلك كان موضع الوصل ظاهراً للرائين ما فيه من فتور وشقوق وقصور وما يشبه ذاك، ولم يمكنه مع ذلك الخروج منه،إن كان داخله فلم يقدر على حفظ خارجه، وإن كان خارجه لم يتمكن من حفظ داخله، وهذا الكون محفوظ من ظاهره وباطنه، فعلم أن صانعه منزه عن الاتصاف بما تحيط به العقول بكونه داخل العلم أو خارجه أو متصلاً به أو منفصلاً عنه، أو محتاجاً في الصنعة إلى إله أو في الحفظ إلى ظهير أو معين، وجمع الفرج للدلالة على إرادة الجنس بالسماء بعد ما أفاده إفراد لفظها، فيدل الجمع مع إرادة الجنس على التوزيع"[2].

﴿ أَفَعَيِينا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾[3].

يمكن القول بأن هذا الإستفهام للتقريع والتوبيخ، ويتضمن التنبيه على دليل عقلي آخر، وهو قياس ما سيكون على ما كان، فالذي بدأ الخلق الأول على غير مثال سبق قادر على أن يعيده بعد فنائه، والله سبحانه لم يعي بالخلق الأول، أي: لم يعجز عن خلقه فكيف يعيا بالخلق الثاني.

---

(١) روح المعانى (٣٢٦/١٣).

(٢) نظم الدرر (٤٠٨/١٨ – ٤٠٩).

(٣) سورة ق الآية (١٥).

قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(١).

والاستفهام المفرع بالفاء هنا استفهام إنكار ذلك "لأنهم لا يسعهم إلا الاعتراف بأن الله لم يعي بالخلق الأول إذ لا ينكر عاقل كمال قدرة الخالق وعدم عجزه. وفعيينا معناه عجزنا"(٢).

ومع هذا الدليل يرى الباحث أن هذه الآية الكريمة تتضمن إشارة صريحة إلى دفع شبهة تكنها صدورهم أن الخلق الأول قد أصاب الخالق -ﷻ- بالإعياء، وجاء النص القرآنى بأسلوب الاستفهام الإنكاري، ومما يجب القول به أن الخلق أولا وثانيا وإلى غير نهاية لا يحتاج من الله -ﷻ- إلا أن يقول للشيء كن فيكون.

"والجملة مستأنفة لتقرير أمر البعث الذي أنكرته الأمم أي: أفعجزنا بالخلق حين خلقناهم أولا ولم يكونوا شيئا، فكيف نعجز عن بعثهم"(٣). "وهذا توقيف للكفار، وتوبيخ وإقامة الحجة الواضحة عليهم"(٤).

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾(٥).

جاء هذا البيان بأسلوب الإثبات التقريري المؤكد، لدفع شبهة من يقول

---

(١) سورة الأحقاف الآية (٣٣).
(٢) التحرير والتنوير (٢٩٧/٢٦).
(٣) فتح القدير (٨٧/٥).
(٤) البحر المحيط (٥٣٣/٩).
(٥) سورة ق آية (١٦).

أن أعمال الإنسان الباطنة والظاهرة لا يحيط بها علم الله تعالى، وهو تقرير واضح من خلال الدليل عليه، وهو كون الله -ﷻ- هو الخالق للإنسان، والخالق له لا بد أن يكون عالما بكل خصائصه وعناصره التي خلقه منها، ومن لازم ذلك أن يعلم ما توسوس به نفسه، وأن يعلم كل أعماله ويحاسبه عليها.

هذه بعض أنواع الأساليب البيانية، وقد جاءت لترد شبهات المنكرين لقضية البعث للحساب والجزاء، ومن الملاحظ أن الموضوع فيها واحد، ولكن تعددت الأساليب التى ترد على مشركى مكة وغيرهم ممن ينكر تلك القضية بالكلية، والتى تؤدى بدورها معنى رائعا، وفيها من الإيجاز البليغ، وتفتح للقارئ مجالا للتفكير فيما حواه القرآن الكريم من أساليب بليغة، ومؤثرة.

وعليه يمكن القول بأن كل ما جاء فى القرآن الكريم من أسلوب فهو مبتكر في أدائه، وطريقته، وغايته، فهو لا يحذو حذو غيره ولا يستقي من مورد سابق عليه كما هو معروف في العرف العام.

المبحث الثانى

التكامل في أساليب البيان القرآنى بين الأشباه والنظائر

بادىء ذى بدء لا بد لنا وأن نقوم بتعريف لمفهوم الأشباه والنظائر حتى يتضح الأمر.

ورد في معجم مقاييس اللغة: "الشِّينُ وَالْبَاءُ وَالْهَاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى تَشَابُهِ الشَّيْءِ وَتَشَاكُلِهِ لَوْنًا وَوَصْفًا. يُقَالُ شِبْهٌ وَشَبَهٌ وَشَبِيهٌ"(١).

"(شِبْهٌ) وَ (شَبَهٌ) لُغَتَانِ بِمَعْنًى. يُقَالُ: هَذَا شِبْهُهُ أَيْ: شَبِيهُهُ وَبَيْنَهُمَا (شَبَهٌ) بِالتَّحْرِيكِ"(٢).

من خلال هذه النصوص يمكن لنا القول بأن الشبه يراد به التماثل، والتقارب في الوصف والذات.

وأما النظائر فجمع نظير، "نَظِيرُ الشَّيْءِ مِثْلُهُ"(٣) "والنَّظِيرُ: المِثْلُ، وَقِيلَ: الْمِثْلُ فِي كُلِّ شَيْءٍ. وَفُلَانٌ نَظِيرُك أَي مِثْلُك لأَنه إِذا نَظَر إِليهما النَّاظِرُ رَآهُمَا سَوَاءً. الْجَوْهَرِيُّ: ونَظِيرُ الشَّيْءِ مِثْلُه ... وجَمْعُ النَّظِير نُظَرَاءُ، والأُنثى نَظِيرَةٌ، وَالْجَمْعُ النَّظائر فِي الْكَلَامِ والأَشياء كُلُّهَا ... وَهِيَ المِثْلُ والشِّبْهُ فِي الأَشكال، الأَخلاق والأَفعال والأَقوال"(٤).

<u>ومن خلال ما سبق يتضح لنا</u> في وضوح وجلاء أن النظير هو الشبيه والمثيل في كل الأحوال والأخلاق.

---

(١) معجم مقاييس اللغة (٢٤٣/٣) مادة (شبه).

(٢) مختار الصحاح (١٦١/١) مادة (شبه).

(٣) المرجع السابق (٣١٣/١) مادة (نظر).

(٤) لسان العرب (٢١٩/٥) مادة (نظر).

ويجب العلم بأن من الأسباب المؤثرة في ارتقاء الكلام وحسنه ما يكون لدى المتكلم أو الكاتب من القدرة على تصيد الأشباه والنظائر، واستخدام بعضها لبعض فى جودة نظم الكلام، وحسن صياغته على الوجه المطلوب.

والحق أن يقال بأن هذا من روائع الإبداع في البيان القرآني، والتكامل الواضح والبليغ فى دلالات ألفاظها، والتعبيرات المتعددة بألفاظ مناسبة لكل مقام، وانتقاء الكلام والألفاظ وذلك دون الإعادة، أو الإخلال بمواطن الفصاحة والجزالة فى الكلام.

ومن يدقق النظر يتضح له جليا أن البيان القرآني يتسم بالتكامل الصريح بين العبارات والألفاظ بعضها البعض وهو ما يمكن أن نطلق عليه بمعنى أوضح وأبين التكامل في الدلالات[1] بين الأشباه والنظائر" وهو

---

(١) **الدلالة في اللغة**: "قال الراغب: "الدّلالة: ما يتوصّل به إلى معرفة الشيء، كدلالة الألفاظ على المعنى، ودلالة الإشارات، والرموز، والكتابة، والعقود في الحساب، وسواء كان ذلك بقصد ممن يجعله دلالة، أو لم يكن بقصد، كمن يرى حركة إنسان فيعلم أنه حيّ، قال تعالى: ﴿ ما دَلَّهُمْ عَلى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ ﴾ [سبأ/١٤]. أصل الدّلالة مصدر كالكتابة والإمارة، والدّالّ: من حصل منه ذلك، والدليل في المبالغة كعالم، وعليم، وقادر، وقدير، ثم يسمّى الدّالّ والدليل دلالة، كتسمية الشيء بمصدره". مفردات ألفاظ القرآن (٣١٧/١) مادة (دل).

وقال ابن فارس: "الدَّالُ وَاللَّامُ أَصْلَانِ: أَحَدُهُمَا إِبَانَةُ الشَّيْءِ بِأَمَارَةٍ تَتَعَلَّمُهَا، وَالْآخَرُ اضْطِرَابٌ فِي الشَّيْءِ.

فَالْأَوَّلُ قَوْلُهُمْ: دَلَلْتُ فُلَانًا عَلَى الطَّرِيقِ. وَالدَّلِيلُ: الْأَمَارَةُ فِي الشَّيْءِ. وَهُوَ بَيِّنُ الدَّلَالَةِ وَالدِّلَالَةِ". مقاييس اللغة (٢٥٩/٢) مادة (دل).

والمعنى الأول هو الأشهر فى الاستعمال. =

تخصيص كل صنف من الأشباه والنظائر في النص بتعبير يفيد معنى خاصا، وهذا التعبير يصلح اطراده في سائر الأشباه والنظائر، وبتوزيع التعبيرات ذوات الدلالات المختلفات على الأشباه والنظائر يحصل الاستغناء عن إعادة كل شبيه ونظير عدة بعدد هذه التعبيرات، للإتيان به في كل مرة مقترنا بواحد منها حتى استغراقها.

وفي هذا الاستغناء إيجاز رائع، واقتصاد في التعبير من جهة، ومسرة لنباهة الأذكياء من جهة أخرى، وتخلص من الركاكة التي يجلبها التكرير في طريقة التعبير من جهة ثالثة.

وتتكامل التعبيرات فيما بينها في أداء المقصود من دلالاتها المختلفات، ويفهم هذا التكامل من قرينة جمع الأشباه والنظائر في نص واحد، وقد يدل عليه بدء وختام"(١).

وبعد ذلك أستطيع التأكيد على ذلك من خلال المثال، وبالمثال يتضح المقام، وسأكتفى ببعض الأمثلة.

المثال الأول:

قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ

= **اصطلاحا**: "بالفتح هى على ما اصطلح عليه أهل الميزان والأصول والعربية والمناظرة أن يكون الشيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء آخر". موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم التهانوى (٧٨٧/١).

(١) البلاغة العربية (٣٣٥/٢) .

وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ * وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾(١).

يمكن القول بأن هذا النص الكريم قد ذكر مجموعة من آيات الله -ﷻ- الدالة على صفات ربوبيته، والبينة فى إثبات ذاته العليا وقدرته -ﷻ-.

وهذه الآيات بعد التأمل الدقيق فيها إنما يستفيد من دلالاتها الواضحة وألفاظها البليغة "المتفكرون فيها، الذين يعقلون النتائج بعد أن يتوصلوا إليها بعقولهم الواعية، ثم بعد أن يعقلوها يعملون على تذكرها آنا بعد آن للاستفادة منها في استنباط حقائق جديدة، وفي الهداية إلى ما يحقق رضوان الرب الخالق، وبعد الاهتداء إلى ذلك تتحرك الدوافع الخلقية الكريمة فيهم للقيام بشكر الله على نعمه الكثيرة التي اشتملت عليها آياته في كونه"(٢).

فمجيء هذه الآيات على هذا النسق تثير الانتباه، وتزيد اليقين بالنفس بصدق هذه الآيات على عظيم قدرته -ﷻ- في كل ما يراه الخلق في هذا الكون من مظاهر القدرة المطلقة لله سبحانه.

وهذا استئناف لذكر دليل آخر من مظاهر خلق الله تعالى "أدمج فيه امتنان بما يأتي به ذلك الماء العجيب من المنافع للناس من نعمة الشراب ونعمة الطعام للحيوان الذي به قوام حياة الناس وللناس أنفسهم.

---

(١) سورة النحل الآيات (١٠-١٥).

(٢) البلاغة العربية (٢/٣٤٣-٣٤٤).

وصيغة تعريف المسند إليه والمسند أفادت الحصر، أى: هو لا غيره"[١].

والمراحل التي يمر بها الإنسان حينما يوجه نظره إلى آيات الله في هذا الكون تأتي بعد التدبر على مراحل مهمة ومتعددة وهى كما وردت فى سياق الآيات الكريمة المذكورة:

المرحلة الأولى: وجوب التفكر في آيات الله سبحانه في هذا الكون، وقد جاء بيان هذه الخطوة بعد ذكر النعم الجليلة من آيات الله التي حواها النص الكريم وأوجب النظر لها وهى إنزال الماء وما استتبعه من كونه ماءا عذبا، والإنبات للزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات، فقال تعالى: "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ".

فقد بين الله تعالى عظيم منته بإنزال الماء من السماء، وجعله إياه عذبا صالحا للسقيا.

ومن الملاحظ أن إنزال الماء من السماء وإخراج النبات به من الأرض تكرر ذكرهما في القرآن على سبيل الامتنان، والاستدلال معا.

وهذا الإنبات "من دلائل عظيم القدرة الربانية، فالغرض منه الاستدلال ممزوجا بالتذكير بالنعمة"[٢].

ومن المعلوم أن الإنبات لا يكون إلا لله تعالى وإنما أسنده إلى ذاته -ﷻ- "لأنه الملهم لأسبابه والخالق لأصوله تنبيها للناس على دفع غرورهم بقدرة أنفسهم، ولذلك قال: "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" لكثرة ما تحت ذلك من الدقائق"[٣].

---

(١) التحرير والتنوير (١١٣/١٤).

(٢) نفس المصدر (١١٤/١٤).

(٣) نفس المصدر (١١٥/١٤).

" "إِنَّ فِي ذَلِكَ" أي: الإنزال والإنبات لآية عظيمة دالة على كمال القدرة والتفرد بالربوبية لقوم يتفكرون في مخلوقات الله ولا يهملون النظر في مصنوعاته وسخر لكم الليل والنهار معنى تسخيرهما للناس تصييرهما نافعين لهم بحسب ما تقتضيه مصالحهم وتستدعيه حاجاتهم، يتعاقبان دائما كالعبد الطائع لسيده لا يخالف ما يأمره به ولا يخرج عن إرادته ولا يهمل السعي في نفعه"(١).

والتعبير بلفظ قوم للدلالة على أن التفكر من طبيعتهم وصفاتهم التى لا تنفك عنهم.

وقد "يطت دلالة هذه(٢) بوصف التفكير لأنها دلالة خفية لحصولها بالتدريج. وهو تعريض بالمشركين الذين لم يهتدوا بما في ذلك من دلالة على تفرد الله بالإلهية بأنهم قوم لا يتفكرون"(٣).

وكذلك لأن النظر في ذلك الإنزال والإنبات يحتاج إلى فضل تأمل واستعمال فكر فى ما يستتبع هذا.

وقد يتسائل عن السر في إفراد لفظ الآية؟ فيجاب عنه بأن السبب "وحدة المحدث عنه، وهو الماء"(٤).

المرحلة الثانية: العقل والفهم الواعى للنتائج التي أوصل إليها التفكر فى

---

(١) فتح القدير(٣/١٨٢).

(٢) الإشارة بلفظ هذه إلى الآية الكريمة: ﴿ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

(٣) التحرير والتنوير (١٤/١١٥)، وينظر: نظم الدرر (١١/١١٩).

(٤) نظم الدرر (١١/١١٩).

تلك المخلوقات العجيبة، وقد جاء بيان هذه المرحلة بعد ذكر العديد من آيات الله التي وجهت الآيات القرآنية النظر لها، فقال الله سبحانه: "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ".

فـ "هذا انتقال للاستدلال بإتقان الصنع على وحدانية الصانع وعلمه، وإدماج بين الاستدلال والامتنان"(١).

وإيثار صيغة الماضي للدلالة على أن ذلك الأمر "واحد مستمر وإن تجددت آثاره"(٢).

وقد عدل عن الجملة الفعلية إلى الإسمية للدلالة على الدوام والاستمرار، وأنها غير مؤقتة بوقت معين.

ولا يخفى على أحد ما في هذه النعم، وتلك الآلاء من الفوائد العظيمة والمنافع الكبرى لبنى آدم، وهى لا بد منها في سبيل تحصيل الأقوات والمعايش، وغير ذلك.

وفيها صلاح الأبدان وصلاح ما به القوام، وهى دلالة صريحة على وحدانيته -ﷻ-، ولذلك كان من المناسب التذييل بالتعقل فى مسخرها ومدبرها على هذا الصنيع العجيب والبديع.

ففى هذا القول الكريم ينبه الله -ﷻ- عباده "على آياته العظام ومننه الجسام في تسخيره الليل والنهار يتعاقبان، والشمس والقمر يدوران، والنجوم الثوابت والسيارات في أرجاء السموات نورا وضياء ليهتدى بها في الظلمات، وكل منها يسير في فلكه الذي جعله الله تعالى فيه، يسير

(١) التحرير والتنوير (١١٦/١٤).

(٢) إرشاد العقل السليم (١٠١/٥).

بحركة مقدرة لا يزيد عليها ولا ينقص عنها، والجميع تحت قهره وسلطانه وتسخيره وتقديره وتسهيله"(١).

ونيطت الدلالة هنا بوصف العقل لأن "أصل العقل كاف في الاستدلال بها على الوحدانية والقدرة، إذ هى دلائل بينة واضحة حاصلة بالمشاهدة كل يوم وليلة"(٢). وكذلك "لأن فيما قبل استدلالا بإنبات الماء وهو واحد وإن كثرت أنواع النبات، والاستدلال هنا متعدد، ولأن الآثار العلوية أظهر دلالة على القدرة الباهرة، وأبين شهادة للكبرياء والعظمة"(٣).

وقد جمع الآيات هنا "لظهور تعدادها بالتحديث عنها مفصلة"(٤).

المرحلة الثالثة: التذكر لمتابعة النظر والبحث التى تعقب مرحلة التعقل، وهى مقدمات لا بد منها فى الانتفاع فى المنهج الأخلاقى فى الحياة، من خلال النتائج التي تم التوصل إليها عن طريق التذكر، وقد جاء بيان هذه المرحلة بعد ذكر العديد من آيات الله تعالى التي وجه النص الكريم النظر لها، فقال الله سبحانه: "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ".

ومناسبة هذه الآية لما قبلها أنه "لما نبه تعالى على معالم السموات نبه على ما خلق في الأرض من الأمور العجيبة، والأشياء المختلفة من الحيوانات والمعادن، والنباتات والجمادات على اختلاف ألوانها وأشكالها، وما فيها من المنافع والخواص"(٥).

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤٨٢/٤).

(٢) التحرير والتنوير (١١٦/١٤)، وينظر اللباب فى علوم الكتاب (٢٤/١٢).

(٣) البحر المحيط (٥١٣/٦).

(٤) نظم الدرر (١٢٢/١١).

(٥) تفسير القرآن العظيم (٤٨٢/٤).

وقوله تعالى: "وَمَا ذَرَأَ" معطوف على الليل والنهار، ومن المعلوم أن ذرء هذه الأشياء على اختلاف الألوان والأشكال آية عظيمة دالة على وجود الله سبحانه وتفرده. ودقيق الصنع والحكمة. "وتنوين آية للتفخيم آية فخيمة بينة الدلالة على أن من هذا شأنه واحد لا ينبغي أن يشبهه شيء في شيء"(١).

وجاء تذييل هذه الآية مناسبا لما ذكر فيها كشأن نظيرتها فيما سبق.

"وختم هذا بقوله: "يَذَّكَّرُونَ"، ومعناه الاعتبار والاتعاظ، كان علمهم بذلك سابق طرأ عليه النسيان فقيل: يذكرون أي: يتذكرون ما نسوا من تسخير هذه المكونات في الأرض"(٢).

المرحلة الرابعة: وجوب شكر الله -ﷻ- على نعمه العديدة، وآياته التي اشتمل عليها هذا الكون العظيم، ومن جملتها ما ذكر هنا فى تلك الطائفة من الآيات، وقد جاء توضيح هذا بعد ذكر آيات الله سبحانه التي وجه النص القرآنى النظر لها، فقال الله تعالى: "وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ".

ووجه التناسب بين هذه الآية والسابقة أنه "لما ذكر تعالى الاستدلال بما ذرأ في الأرض، ذكر ما امتن به من تسخير البحر. ومعنى تسخيره: كونه يتمكن الناس من الانتفاع به للركوب في المصالح، وللغوص في استخراج ما فيه، وللاصطياد لما فيه"(٣).

والناظر لهذه النعم التى اشتملت عليها هذه الآية يلاحظ تغاير الأسلوب في قوله تعالى" وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ" وذلك لقصد "مخالفة الأسلوب

(١) روح المعانى (٣٥٣/٧).
(٢) البحر المحيط (٥١٣/٦).
(٣) نفس المصدر ونفس الصفحة.

للتعجيب من تسخير السير في البحر باستحضار الحالة العجيبة بواسطة فعل الرؤية ... واجتلاب فعل الرؤية في أمثاله يفيد الحث على معرفة ذلك. فهذا النظم للكلام لإفادة هذا المعنى ولولاها لكان الكلام هكذا: وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وتبتغوا من فضله في فلك مواخر"(١).

ولعل سائلا يتسائل عن السر فى عطف قوله تعالى: "وَلَعَلَّكُمْ "؟ غير أنه يمكن أن يجاب عنه بأن "عطف "وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" على بقية العلل لأنه من الحكم التي سخر الله بها البحر للناس حملا لهم على الاعتراف لله بالعبودية ونبذهم إشراك غير ربه فيها. وهو تعريض بالذين أشركوا"(٢).

ولابد من التفكير فى سر التعبير فى ختم كل آية بما ختمت بها، وكذلك يجب العلم بأن "كلا من هذه المواضع الثلاثة يصلح لذكر التفكر ولذكر التعقل ولذكر التذكر لاعتبارات ظاهرة غير خفية، فكان في التعبير في كل موضع بواحد منها افتنان حسن لا يوجد في التعبير بواحد منها في جميع المواضع الثلاثة"(٣) وكذلك فقد جاء توزيعها عليها هكذا "مراعاة لفنية الأداء البياني، وابتعادا عن تكريرها جميعا مع كل مجموعة، أو حشرها جميعا في آخر المجموعات، لأن كلا من التكرير والجمع أخيرا يضعف بلاغة النص، وينزل من قيمة صياغته الفنية. وقرينة توجيه النظر لكل هذه المجموعات من آيات الله في كونه ضمن نص واحد، مع صلاحية هذه الآيات فكريا لأن يأتي التعقيب عليها بأي واحد من التعقيبات الأربعة، قرينة دالة على أن

(١) التحرير والتنوير (١١٦/١٤) باختصار.
(٢) نفس المصدر (١٢٠/١٤) .
(٣) فتح القدير(١٨٣/٣).

المراد تعميمها على الجميع، وأن التعقيبات متكاملات فيما بينها"[1].

إذا تقرر هذا لديك فاعلم أن القرآن الكريم الصورة المثلى للبيان الرفيع، وبقى أسلوبه المثل الأعلى لرجال الفصاحة والبلاغة، يحتذونه فى أساليبهم ومقالاتهم، ويقتبسون منه ما يزينون به كلامهم.

والأسلوب القرآنى مختلف عن غيره ولا يمكن تقليده، ففيه إحياء المعانى وتقويتها وزيادة الانتباه إليها، وهذا من أسرار إعجازه.

المثال الثانى :

قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴾[2].

يرى الباحث أن هذا النص الكريم قد اشتمل على ما احتوى عليه من أدب التكامل البياني الذي سبق إيضاحه وتقريره، ففيه ينهى الله -ﷻ- المؤمنين عن بعض القبائح والرذائل الإجتماعية، والتى من شأنها بث الفرقة والعداوة والبغضاء بين المسلمين، وتثير النزاع بين أفراد الجماعة المسلمة لما فيها من الإيذاء والإضرار.

وهي قبائح تشتمل على الظلم من الإنسان لأخيه، وكل ظلم بين الناس

(١) البلاغة العربية (٢/٣٤٤ - ٣٤٥).

(٢) سورة الحجرات الآية (١١ - ١٢).

من شأنه أن يورث العداوة والبغضاء، ويوقع الفرقة بين الجماعة والأمم، وهذه القبائح هى كما يلى:

السخرية – اللمز – التنابز بالألقاب – اتهام المؤمنين بالظنون الضعيفة التي لا تقوى على الاتهام – التجسس على المؤمنين – غيبة المؤمنين المتقين.

وبالنظر في هذا النص ألاحظ أن كل نهي فيه "قد انفرد بلون تعبيري ذي دلالة خاصة قابلة لأن تكون شاملة لسائر القبائح التي جاء في النص النهي عنها.

(١) ففي السخرية جاء التعبير بأسلوب: "لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ".

(٢) وفي اللمز جاء التعبير بأسلوب: "وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ".

(٣) وفي النبز بالألقاب القبيحة جاء التعبير بأسلوب: "وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ".

(٤) وفي الظن المنهي عنه جاء التعبير بأسلوب: "اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ".

(٥) وفي التجسس جاء التعبير بأسلوب: "وَلَا تَجَسَّسُوا".

(٦) وفي الغيبة جاء التعبير بأسلوب: "وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا".

ويلاحظ أنه يصح في كل منها استعمال التعبيرات الأخرى لتؤدي فيه دلالاتها"[١].

فيمكن أن يقال مثلا في السخرية: لا تسخروا من أنفسكم – اجتنبوا السخرية.

ويقال في اللمز: لا يلمز قوم قوما، اجتنبوا اللمز.

---

(١) البلاغة العربية (٣٣٦/٢).

ويقال في النبز بالألقاب القبيحة: لا ينبز بالألقاب قوم قوما – اجتنبوا النبز بالألقاب.

وهكذا يقال في سائر التعبيرات المختلفة المذكورة.

بداية أقول أن هذا تأديب آخر، يضم إلى آداب هذه السورة الكريمة، التى سميت بسورة الآداب الاجتماعية، والتى اشتملت على العديد من الآداب والأخلاق التى يجب على الجميع التحلى بها.

وعليه فمناسبة هذه الآيات لما قبلها أنه "بعد الإرشاد إلى ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن مع الله تعالى ومع النبي -ﷺ- ومع من يخالفهما ويعصيهما وهو الفاسق، بين ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن مع المؤمن"(١).

فجاءت هذه الآيات منبهة على هذه الأمور وهى من حسن المعاملة.

ومن المعروف أن ما بدء فيه من الآيات بالنداء للمسلمين ففيه اهتمام بالغرض، ووجوب الانتباه، والتشويق لتمكين الخبر في نفس السامع.

ومن الأساليب البيانية التى اشتملت عليها الآيات الكريمة قوله تعالى: "قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ".

والسخرية تغلب فيها "المشاركة الجماعية، إذ الساخر يضحك بسخريته آخرون، فيكونون مشاركين له في عمله، فجاء التعبير فيها بأسلوب: "لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ"(٢).

والسر فى تنكير قوم في الموضعين "لإفادة الشياع(١)، لئلا يتوهم نهي قوم معينين سخروا من قوم معينين. وإنما أسند يسخر إلى قوم دون أن

(١) مفاتيح الغيب (١٠٧/٢٨)، وينظر: التفسير المنير للزحيلى (٢٥٠/٢٦).
(٢) البلاغة العربية (٣٣٧/٢).

يقول: لا يسخر بعضكم من بعض كما قال: "وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا"[٢] للنهي عما كان شائعا بين العرب من سخرية القبائل بعضها من بعض فوجه النهي إلى الأقوام. ولهذا أيضا لم يقل: لا يسخر رجل من رجل ولا امرأة من امرأة. ويفهم منه النهي عن أن يسخر أحد من أحد بطريق لحن الخطاب" [٣].

وهذا النهي صريح في التحريم القاطع لهذه الخصلة الذميمة، وهنا ينادى الله تعالى عباده بوصف الإيمان، لينتهوا عما ينافى ذلك الوصف الطيب، وليشعرهم بأن ما يدعوهم إليه هو من مقتضى الإيمان الصحيح.

وقد تعرضت الآيات الواقعة عقب هذا النداء لصنف مهم جدا، وذلك لبيان معاملة المسلمين بعضهم لبعض، مما فشا في الناس والتحذير من التساهل فيه.

ومن البيان القرآنى أيضا تخصيص سخرية الرجال من الرجال والنساء من النساء، ولم يذكر ما يخالف ذلك.

والفائدة في ذلك هى أن عدم "الالتفات والاستحقار إنما يصدر في أكثر الأمر من الرجال بالنسبة إلى الرجال، لأن المرأة في نفسها ضعيفة، فإذا لم يلتفت الرجال إليها لا يكون لها أمر،... وأما المرأة فلا يوجد منها استحقار الرجل وعدم التفاتها إليه لاضطرارها في دفع حوائجها إليه، وأما الرجال بالنسبة إلى الرجال والنساء بالنسبة إلى النساء فيوجد فيهم هذا النوع من

---

(١) هكذا فى الأصل، ولعل المقصود شيوع الأمر لئلا يتوهم أحد أن الأمر خاص بطائفة معينة، أو زمن معين.

(٢) سورة الحجرات الآية (١٢).

(٣) التحرير والتنوير (٢٦- ٢٤٧).

القبح وهذا أشهر"[1].

وجاء في هذا التعبير إفراد النساء عن الذكور فى التعبير فى قوله تعالى: "وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ" مع أن القوم يشملهم بطريق التغليب في الكلام، كما يشمل لفظ المؤمنين المؤمنات أيضا في القرآن بقرينة مقام التشريع للأحكام، فإن الأصل التساوي في الأحكام إلا ما اقتضى الدليل تخصيص أحدهما، ولعل السر فى ذلك للإشارة إلى أن المجتمعات الإسلامية غير مختلطة في الغالب، فتقل فيها السخرية بين الصنفين.

وأيضا للإشعار بأن "مجالسة الرجل المرأة مستقبح شرعا حتى منعوها عن حضور الجماعة ومجلس الذكر لأن الإنسان إنما يسخر ممن يلابسه غالبا"[2].

أما اللمز فيغلب فيه العمل الفردي الخفي غالبا، ولا يدركه سوى أهل الذكاء والعقل الراجح، وعليه فقد جاء التعبير بأسلوب: "وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ"، وللدلالة أيضا على أن من عاب غيره بهذا الصنيع فكأنما لمز نفسه، لأن المؤمنين هم بمثابة الجسد الواحد كما أشار بذلك الحديث، عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ[3]، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-: "مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ،

---

(١) مفاتيح الغيب (١٠٨/٢٨) باختصار، وينظر الجامع لأحكام القرآن (٣٢٦/١٦).

(٢) روح البيان (٧٩/٩).

(٣) النعمان بن بشير ابن سعد بن ثعلبة كعب بن الخزرج الأنصاري، كان أول مولود للأنصار بعد الهجرة، ، له ولأبويه صحبة، كان أمير الكوفة في عهد معاوية، وكَانَ كريما جوادا شاعرا شجاعا،ذكره مُحَمَّد بْن سعد في الطبقة الثالثة من الصحابة، مات سنة أربع وستين.معرفة الصحابة (٢٦٥٨/٥)، أسد الغابة (٥٥٠/٤)، تهذيب الكمال (٤١١/٢٩).

وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى"(١).

فجعل البيان القرآنى اللامز أخاه لامزا نفسه، "لأن المؤمنين كرجل واحد فيما يلزم بعضهم لبعض من تحسين أمره، وطلب صلاحه، ومحبته الخير"(٢).

وهذا المعنى مع أسلوب التعبير عنه يصلح تعميمه على سائر القبائح الأخرى.

"ولما كانت السخرية تتضمن العيب، ولا يصرح فيها، وكان اللمز العيب نفسه، رقي الأمر إليه فقال: "وَلَا تَلْمِزُوا" أى: تعيبوا على وجه الخفية" (٣) واللمز يكون بالقول والإشارة "ونحوه مما يفهمه آخر، والهمز لا يكون إلا باللسان، والمعنى: لا يعب بعضكم بعضا"(٤).

والمراد به كما جاء فى أصل اللغة:

"اللَّامُ وَالْمِيمُ وَالزَّاءُ كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ، وَهِيَ اللَّمْزُ، وَهُوَ الْعَيْبُ. يُقَالُ لَمَزَ يَلْمِزُ لَمْزًا"(٥).

وهذا من الآفات التى تهدد كيان المجتمع، وتقوض بنيانه، لأن شيوع الاستخفاف بالأنفس، وعدم التحرج من ذكر بعضهم بعضا بالقبائح

---

(١) أخرجه الإمام البخارى فى صحيحه كتاب بابُ: رَحْمَةِ النَّاسِ وَالبَهَائِمِ (١٠/٨) رقم (٦٠١١)، والإمام مسلم فى صحيحه ٤٥ – كتاب: الْبِرِّ وَالصِّلَةِ وَالْآدَابِ ١٧ – بَابُ: تَرَاحُمِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَعَاطُفِهِمْ وَتَعَاضُدِهِمْ (١٩٩٩/٤) رقم (٦٦).

(٢) جامع البيان (٢٢– ٢٨٩).

(٣) نظم الدرر (٣٧٦/١٨).

(٤) البحر المحيط (٥١٧/٩).

(٥) مقاييس اللغة (٢٠٩/٥) مادة (لمز)، وينظر الصحاح (٨٩٥/٣) مادة (لمز).

والمساوىء، إنما يكون من إفرازات الجماعات المتحللة من القيم الخلقيـــة والمثل العليا.

ومفهوم أنفسكم هنا "أن له أن يعيب غيره، مما لا يدين بدينه"(١).

والنبز باللقب، وهو الشتم بالألقاب القبيحة والسيئة، ويتضح أنه عمل تغلب فيه المشاركة بين فريقين، فمن نبز غيره رد عليه المنبوز غالبا بمثل قوله، أو بأقبح منه، انتقاما لنفسه، ومن أجل ذلك جاء التعبير بأسلوب: "وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ".

والنبز كما جاء فى اللغة:

"نبز: النَّبَزُ، بِالتَّحْرِيكِ: اللَّقَبُ، وَالْجَمْعُ الأَنْبازُ. والنَّبْزُ، بِالتَّسْكِينِ: المصدرُ. تَقُولُ: نَبَزَهُ يَنْبِزُه نَبْزاً أَي: لَقَّبَه، وَالِاسْمُ النَّبَزُ كالنَّزَب. وَفُلَانٌ يُنَبِّزُ بالصِّبْيان أَي: يُلَقِّبُهم، شدِّد لِلْكَثْرَةِ. وتَنابَزُوا بالأَلقاب أَي: لَقَّبَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا. والتَّنابُزُ: التَّدَاعِي بالأَلقاب وَهُوَ يَكْثُرُ فِيمَا كَانَ ذَمًّا"(٢).

والمراد بالألقاب في الآية: "الألقاب المكروهة بقرينة "وَلَا تَنَابَزُوا" " (٣).

وبعد ذلك يمكن القول بأن أفضل وسيلة لترك الظن الذي يأثم به صاحبه، هو اجتناب كثير من الظن، لأن من جرى مع ظنونه أوصلته إلى ما يأثم به حتما بين أقرانه فى الأسرة بل فى المجتمع، وذلك لما لاتباع الظن من العاقبة غير المحمودة، بل هلاك النفوس، و"جاء التعبير فيه بأسلوب الأمر بالاجتناب، أى: بالابتعاد عن كثير من الظن: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

(١) نفس المصدر (٥١٧/٩ – ٥١٨).

(٢) لسان العرب (٤١٣/٥) مادة (نبز)، والصحاح (٨٩٧/٣) مادة (نبز).

(٣) التحرير والتنوير (٢٦– ٢٤٩).

اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ" وأسلوب الأمر بالاجتناب يصلح تعميمه على سائر القبائح الست، ففي الابتعاد عن حدودها سلامة وحفظ وورع محمود"(١).

وقد أعيد النداء خامس مرة للتنبيه، والاستقلال، وأيضا لاختلاف الغرض والاهتمام به "وذلك أن المنهيات المذكورة بعد هذا النداء من جنس المعاملات السيئة الخفية التي لا يتفطن لها من عومل بها فلا يدفعها فما يزيلها من نفس من عامله بها"(٢).

فقد أمر الله تعالى باجتنابه، "لئلا يجترىء أحد على ظن إلا بعد نظر وتأمل وتمييز بين حقه وباطله. والمأمور باجتنابه هو بعض الظن المحكوم عليه بأنه إثم"(٣).

والناظر يلاحظ أن النص القرآنى عبر بلفظ بعض، ولم يعبر بلفظ الكثير وإبهامه "لإيجاب الاحتياط والتأمل في كل ظن حتى يعلم أنه من أي قبيل"(٤).

ففى هذا النص الكريم تأديب عظيم يبطل ما كان فاشيا في الجاهلية من الظنون السيئة والتهم الباطلة نظرا لما ينشأ عنها من الغيرة والمكائد، ويوجه النظر إليه، ويؤكد على ما فيه صلاح المجتمعات المسلمة من آداب عالية وأخلاق سامية.

وكذلك يتضح للباحث أن التجسس يغلب فيه العمل الفردي الذي

---

(١) البلاغة العربية (٣٣٨/٢ - ٣٣٩).
(٢) التحرير والتنوير (٢٦- ٢٥٠).
(٣) البحر المحيط (٥١٩/٩).
(٤) إرشاد العقل السليم (١٢٢/٨).

يستخفي به فاعله فجاء التعبير فيه بأسلوب "وَلَا تَجَسَّسُوا" فالنهي للجماعة عموما عما يمكن أن يقوم به كل فرد من أفرادها، وهو نهي موجه لكل فرد، وهو نوع من المعاملة الخفية التى لا يمكن معرفتها.

فقد "نهى عن تتبع عورات المسلمين ومعايبهم والاستكشاف عما ستروه"(١).

ويرى الباحث أن التجسس الذي "لا ينجر منه نفع للمسلمين أو دفع ضر عنهم فلا يشمل التجسس على الأعداء ولا تجسس الشرط على الجناة واللصوص"(٢).

وبالنظر إلى كتب اللغة أجد أن "التَّجَسُّسُ، بِالْجِيمِ: التَّفْتِيشُ عَنْ بَوَاطِنِ الأُمور، وأَكثر مَا يُقَالُ فِي الشَّرِّ. والجاسُوسُ: صَاحِبُ سِرِّ الشَّر، والناموسُ: صَاحِبُ سرِّ الْخَيْرِ، وَقِيلَ: التَّجَسُّسُ، بِالْجِيمِ، أَن يَطْلُبَهُ لِغَيْرِهِ، وَبِالْحَاءِ، أَن يَطْلُبَهُ لِنَفْسِهِ، وَقِيلَ بِالْجِيمِ: الْبَحْثُ عَنِ الْعَوْرَاتِ، وَبِالْحَاءِ الِاسْتِمَاعُ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُمَا وَاحِدٌ فِي تَطَلُّبِ مَعْرِفَةِ الأَخبار ... والجاسُوسُ: العَيْنُ يَتَجَسَّسُ الأَخبار ثُمَّ يأْتي بِهَا، وَقِيلَ: الجاسُوسُ الَّذِي يَتَجَسَّس الأَخبار"(٣).

وبالإنتقال إلى لفظ الغيبة أجد أنها ظاهرة من ظواهر القبائح الاجتماعية، التي يؤذي بها الناس بعضهم بعضا، إذ فيها مغتاب وغيره ممن هو مشارك له بالسماع أو غيره، فجاء التعبير فى النهى عنها بأسلوب "وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا".

والناظر في هذا النص القرآنى يلاحظ أن أسلوب البيان القرآنى هنا قد

(١) إرشاد العقل السليم (١٢٢/٨).
(٢) التحرير والتنوير (٢٦– ٢٥٤).
(٣) لسان العرب (٦– ٣٨) مادة (جسس) باختصار.

عبر بلفظ: "وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا". دون أن يقول مثلا: اجتنبوا الغيبة وذلك "لقصد التوطئة للتمثيل الوارد في قوله: "أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا" لأنه لما كان ذلك التمثيل مشتملا على جانب فاعل الاغتياب ومفعوله مهد له بما يدل على ذاتين لأن ذلك يزيد التمثيل وضوحا"(١).

وهى من الأفعال القبيحة التى لا بد من اجتنابها، ولا تكون إلا في السوء ولا تجلب إلا الضر والكيد، وبالجملة هى ذكر أحد غائبا بما لا يحب أن يذكر به.

وهى كما جاءت فى كتب اللغة" الغَيْبُ: كلُّ ما غاب عنك. تقول: غاب عنه غَيبةً وغيبا وغيابا وغيوبا ومغيبا ... والاسم الغَيبةُ، وهو أن يتكلم خلف إنسانٍ مستور بما يَغُمُّه لو سمعه. فإن كان صدقاً سُمِّيَ غيبَةً، وإن كان كذباً سمِّي بُهتاناً"(٢).

وبعد ذلك يمكن القول بأن المتدبر لهذا النص القرآنى المذكور يلاحظ أن جميع هذه التعبيرات ذوات الأداء المتنوع، قد جمع عدة قبائح اجتماعية، هى أشباه ونظائر فيما بينها، ويمكن أن يوضع لها عنوان واحد، بهدف النهى عنها والتحذير من إقترافها ، وهو يشعر بأن كل تعبير وأسلوب منها يصلح تعميمه واستعماله في سائرها.

وهذا من روائع الإيجاز والإعجاز البياني الذي اشتمل عليه هذا الكتاب الحكيم.

والأساليب تختلف من موضوع إلى موضوع، ويجب أن نعى بأن

---

(١) التحرير والتنوير (٢٦- ٢٥٤).

(٢) الصحاح (١/١٩٦ - ١٩٧) مادة (غيب).

دراسة البيان على وجه العموم أساس يعتمد عليه فى دراسة إعجاز القرآن الكريم، وسبيل إلى إدراك إعجازه، وفهم معانيه ومعرفة أحكامه، وطرق الاستدلال بأساليبه وتعبيراته على إثبات هذا الإعجاز، والرد على منكريه.

وهذه الدراسة يجب أن تتناول الأسلوب بأوسع معانيه، وتدرس اللفظ، وتتناول الجملة ونظم العبارة، كما تتناول دلالة اللفظ ودلالة العبارة على المعنى، حتى تتسم الدراسة بالذوق المستنير، والإدراك الكامل، والتحليل الدقيق.

ويمكن القول بأن القرآن الكريم قد امتاز فى عرضه لموضوعاته التى اشتمل عليها بطريقة لم يسبق إليها أحد، فلا يمكن أن يسلكها إنسان، فهى وحدة مترابطة الأجزاء، تعطى للقارىء منظرا رائعا، متكاملة البناء قوية المعنى، يكمل بعضها بعضا، وبالجملة فهو فريد فى بابه، وقد اتخذ له أسلوبا يختص به أعجز البلغاء وغيرهم من الفصحاء، ومنهجا لم تعهده البشرية.

فتراه حين يعرض لتلك الموضوعات يأتى بوجوه مختلفة "وأساليب متنوعة وأفانين متجددة، يراعى المقام فى كل موقف من مواقفه، ويطابق جميع مقتضيات الحال فى كل عبارة من عباراته، فله فى كل مقام مقال وفى كل موضوع مجال، فمرة يكون خبرا ومرة إنشاء، وتارة إظهارا وأخرى إضمارا، يأتى بجملة إسمية كما يأتى بها فعلية، تتلون بين التكلم والخطاب كما تتلون بين الماضى والحاضر والإستقبال.

تتصور بصورة الإنكار كما تتصور بصورة التمنى والإستفهام، وتكون على وجه الجزم كما تكون على وجه الرجاء.

طرق فى الأداء لا عهد للبشر بها فى أبلغ كلام ولا مثيل لها فى أفصح بيان، غاية فى البلاغة ليس لها نهاية، ونهاية فى الفصاحة لا يجاوز الفصحاء مبتدأها" (١).

وهذه الموضوعات التى احتوى عليها القرآن الكريم هى في ذاتها معجزة، بمعنى أن البشر لا يستطيعون أن يأتوا بمثلها، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا.

فهناك إعجاز في الموضوع ذاته وإعجاز في التعبير عنه.

وأكتفى بهذا القدر في هذا العمل، وبذلك أكون قد أتيت بفضل الله تعالى إلى نهاية المطاف.

(١) التفسير الموضوعى للقرآن الكريم: أ.د/ أحمد السيد الكومى. أ.د/ محمد أحمد القاسم (ص ٣٤- ٣٥)، ط: الأولى ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م، بدون ذكر المطبعة، وينظر: مباحث فى علوم القرآن القطان (١/١١٦).

الخاتمة

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات، والشكر له على أن وفقنى بأن ذلل لى العقبات، والصلاة والسلام على من ختمت به النبوات وعلى آله وصحبه الأئمة الثقات ..

وبعد ،،،

فإن موضوع البيان القرآني من الموضوعات ذات الأهمية لدى دارسى التفسير وعلوم القرآن، وكذلك علوم البلاغة عموما وكتاب الله تعالى خصوصا، ولا شك أن هناك الكثير والكثير مما لم يذكر منه في البحث، لكنها نظرات حاولت من خلالها تقريب هذا الموضوع لدى الأفهام.

فإن أعظم ما تسمو إليه الهمم، وتتطلع إليه النفوس، وتشتاقه القلوب وتبحثه العقول، هو النظر فى كتاب الله تعالى.

ويجدر بى فى نهاية هذا البحث أن أذكر بعض النتائج وهى كما يلى:

١) تميز البيان القرآنى بمنهج فريد في بابه، وأسلوب أعجز البلغاء والفصحاء.

٢) القرآن الكريم قد امتاز فى عرضه لموضوعاته التى اشتمل عليها بطريقة لم يسبق إليها أحد، ولم تعهدها البشرية.

٣) الفهم الدقيق لدلالات الألفاظ، واستيعابها مما يعين على فهم المعاني الصحيحة من الكلام.

٤) عناية القرآن الكريم بالعبارات والأساليب، في انتقاء وصفاء، وهذا ما يعرف بالذوق الرفيع والمستنير فى عرض مضمون الكلام.

٥) أن الأسلوب القرآنى يبرز أحيانا شيئا فإذا ما قرأه القارىء المتدبر بان

له خلاف ما توهم، وتلك من خصائص إعجازه.

٦) الأسلوب غير المفردات والتراكيب التي يتألف منها الكلام وينتظم، وإنما هو الطريقة التي سلكها القرآن العظيم في اختيار المفردات والمعانى المتعددة.

أما التوصيات فهي كالآتى:

١) ضرورة الاهتمام بهذه الدراسات التى تكشف جوانب الإعجاز، وتبرز مظاهر فصاحته على الوجه المطلوب.

٢) الضرورة التامة للباحثين والدارسين أن يكونوا على بصيرة بفنون دلالات الكلام على المعاني، وأن يتمرسوا بألوان التعبير البليغ ويدربوا أنفسهم على تذوق آداب القول، وعلى معرفة أحوال التلاؤم بين أسلوب الكلام ومقتضى حال المخاطب به، حتى يكون كلامهم أكثر تأثيرا.

٣) الوعى الكامل من الدارسين والباحثين والتنبه على أنه من عناصر الجمال في الكلام حسن تركيب الجمل، بتنظيم مفرداتها على نسق متلائم لا تنافر فيه ولا غرابة، مع العناية الكاملة بالتزام أصول دلالات التراكيب التي نبه عليها العلماء.

٤) وكذلك ضرورة انتقاء المفردات الجميلة التي تحمل أقوى وأدق دلالة على المعنى المراد، مع توافر عنصر الملاءمة بينها وبين مضمون الكلام بوجه عام، وحال المخاطبين به، والقدوة الطيبة لنا القرآن الكريم وفيه ما فيه من الكفاية.

وفي ختام هذه الدراسة أقول: إن هذه محاولة متواضعة غاية التواضع. أردت أن أشارك بها في ميدان البحث العلمي، خدمة للدراسات القرآنية. وما أبرئ نفسي من التقصير، فتلك شيمة الإنسان في كل زمان ومكان؛ ذلك أن الكمال المطلق لكتاب الله وحده. أما أعمال بني الإنسان فإنها عرضة للخطأ والنسيان، والزلل، والله تعالى أسأل أن يتقبله منى، وأن يجعله فى ميزان حسناتى، ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾(١).

(١) سورة هود جزء من الآية (٨٨).

فهرس المصادر والمراجع

١. أساس البلاغة: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله. (ت ٥٣٨هـ) تحقيق: محمد باسل عيون السود. الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط: الأولى ١٤١٩هـ ١٩٩٨م.

٢. أسد الغابة: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم ابن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ)، الناشر: دار الفكر – بيروت ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م.

٣. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: أبو السعود العمادي محمد ابن محمد بن مصطفى (ت ٩٨٢هـ) الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٤. إنباه الرواة على أنباه النحاة: جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي (ت ٦٤٦هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم. الناشر: دار الفكر العربي – القاهرة، ومؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط: الأولى ١٤٠٦هـ ١٩٨٢م.

٥. البحر المحيط في التفسير: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي ابن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (ت ٧٤٥هـ)، المحقق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر، بيروت، ط: ١٤٢٠هـ.

٦. بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: المكتبة العصرية، لبنان / صيدا.

٧. البلاغة العربية: عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي (ت

١٤٢٥هـ)، الناشر: دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط: الأولى ١٤١٦هـ ١٩٩٦م.

٨. البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة: مجد الدين أبو طاهر محمد ابن يعقوب الفيروزآبادى (ت ٨١٧هـ)، الناشر: دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، ط: الأولى ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.

٩. البيان العربى دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العرب ومناهجها ومصادرها الكبرى: د/ بدوى طبانة، ط: الرابعة، مكتبة الأنجلو المصرية ١٣٨٨هـ ١٩٨٦م.

١٠. التفسير البيانى: د/ عائشة بنت الشاطىء، ط: دار المعارف، بدون تاريخ.

١١. تفسير القرآن العظيم: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ابن كثير) (ت ٧٧٤هـ)، المحقق: محمد حسين شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، بيروت، ط: الأولى ١٤١٩هـ.

١٢. التفسير الموضوعى للقرآن الكريم: أ.د/ أحمد السيد الكومى، أ.د/ محمد أحمد القاسم، ط: الأولى ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م، بدون ذكر المطبعة.

١٣. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج: د/ وهبة بن مصطفى الزحيلي، الناشر: دار الفكر المعاصر، دمشق، ط: الثانية ١٤١٨هـ.

١٤. تكملة المعاجم العربية: رينهارت بيتر آن دُوزِي (ت ١٣٠٠هـ)، نقله إلى العربية وعلق عليه:

جـ ١ – ٨: محمَّد سَليم النعَيمي.

جـ ٩، ١٠: جمال الخياط.
الناشر: وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، ط: الأولى ١٩٧٩ - ٢٠٠٠م.
١٥.تهذيب الكمال في أسماء الرجال: يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف، أبو الحجاج، جمال الدين ابن الزكي أبي محمد القضاعي الكلبي المزي (ت ٧٤٢هـ)، المحقق: د/ بشار عواد معروف، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: الأولى ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م.
١٦.جامع البيان في تأويل القرآن: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير ابن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (ت ٣١٠هـ)، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، ط: الأولى ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م.
١٧.الجامع لأحكام القرآن: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية، القاهرة، ط: الثانية ١٣٨٤هـ ١٩٦٤م.
١٨.جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع: أحمد بن إبراهيم ابن مصطفى الهاشمي (ت ١٣٦٢هـ)، ضبط وتدقيق وتوثيق: د/ يوسف الصميلي، الناشر: المكتبة العصرية، بيروت.
١٩.دراسات في علوم القرآن: محمد بكر إسماعيل (ت ١٤٢٦هـ)، الناشر: دار المنار، ط: الثانية ١٤١٩هـ ١٩٩٩م.
٢٠.روح البيان: إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي، المولى أبو الفداء. (ت ١١٢٧هـ)، الناشر: دار الفكر، بيروت.

٢١.روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت ١٢٧٠هـ)، المحقق: علي عبدالباري عطية، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى ١٤١٥هـ.
٢٢.سير أعلام النبلاء: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان ابن قَايْماز الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف: الشيخ شعيب الأرناؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، ط: الثالثة ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.
٢٣.الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (ت ٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين، بيروت، ط: الرابعة ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.
٢٤.طبقات الحفاظ: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى ١٤٠٣هـ.
٢٥.فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير: محمد ابن علي بن محمد بن عبدالله الشوكاني اليمني (ت ١٢٥٠هـ)، الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت. ط: الأولى ١٤١٤هـ.
٢٦.فوات الوفيات: محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن بن شاكر ابن هارون بن شاكر الملقب بصلاح الدين (ت ٧٦٤هـ)، المحقق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر، بيروت، ط: الأولى، الجزء: ١ – ١٩٧٣م.
٢٧.الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله.

(ت ٥٣٨هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، ط: الثالثة ١٤٠٧هـ.
٢٨.اللباب في علوم الكتاب: أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (ت ٧٧٥هـ)، المحقق: الشيخ عادل أحمد عبدالموجود والشيخ علي محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت / لبنان، ط: الأولى ١٤١٩هـ ١٩٩٨م.
٢٩.لسان العرب: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (ت ٧١١هـ)، الناشر: دار صادر، بيروت، ط: الثالثة ١٤١٤هـ.
٣٠.مباحث في علوم القرآن: مناع بن خليل القطان (ت ١٤٢٠هـ)، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط: الثالثة ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.
٣١.مختار الصحاح: زين الدين أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الحنفي الرازي (ت ٦٦٦هـ)، المحقق: يوسف الشيخ محمد، الناشر: المكتبة العصرية – الدار النموذجية، بيروت – صيدا، ط: الخامسة ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م.
٣٢.المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (ت ٧٧٠هـ)، الناشر: المكتبة العلمية، بيروت.
٣٣.المخصص: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (ت ٤٥٨هـ)، المحقق: خليل إبراهم جفال، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: الأولى ١٤١٧هـ ١٩٩٦م.
٣٤.المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله -ﷺ-:

مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت ٢٦١هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٣٥.معرفة الصحابة: أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق ابن موسى بن مهران الأصبهاني (ت ٤٣٠هـ)، تحقيق: عادل بن يوسف العزازي، الناشر: دار الوطن للنشر، الرياض، ط: الأولى ١٤١٩هـ ١٩٩٨م.

٣٦.مفاتيح الغيب: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (ت ٦٠٦هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: الثالثة ١٤٢٠هـ.

٣٧.مقاييس اللغة: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت ٣٩٥هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م.

٣٨.مناهل العرفان في علوم القرآن: محمد عبد العظيم الزُّرْقاني (ت ١٣٦٧هـ)، الناشر: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط: الثالثة.

٣٩.موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: محمد بن علي ابن القاضي محمد حامد بن محمّد صابر الفاروقي الحنفي التهانوي (ت ١١٥٨هـ)، تقديم وإشراف ومراجعة: د/ رفيق العجم، تحقيق: د/ علي دحروج.

٤٠.نقل النص الفارسي إلى العربية: د/ عبدالله الخالدي، الترجمة الأجنبية: د/ جورج زيناني، الناشر: مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط: الأولى ١٩٩٦م.

٤١.النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم: محمد بن عبد الله دراز (ت ١٣٧٧هـ)، اعتنى به: أحمد مصطفى فضلية، قدم له: أ.د/ عبدالعظيم إبراهيم المطعني، الناشر: دار القلم للنشر والتوزيع، ط: طبعة مزيدة ومحققة ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م.

٤٢.نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط ابن علي بن أبي بكر البقاعي (ت ٨٨٥هـ)، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

٤٣.الوافي بالوفيات: صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (ت ٧٦٤هـ)، المحقق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، الناشر: دار إحياء التراث، بيروت ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م.